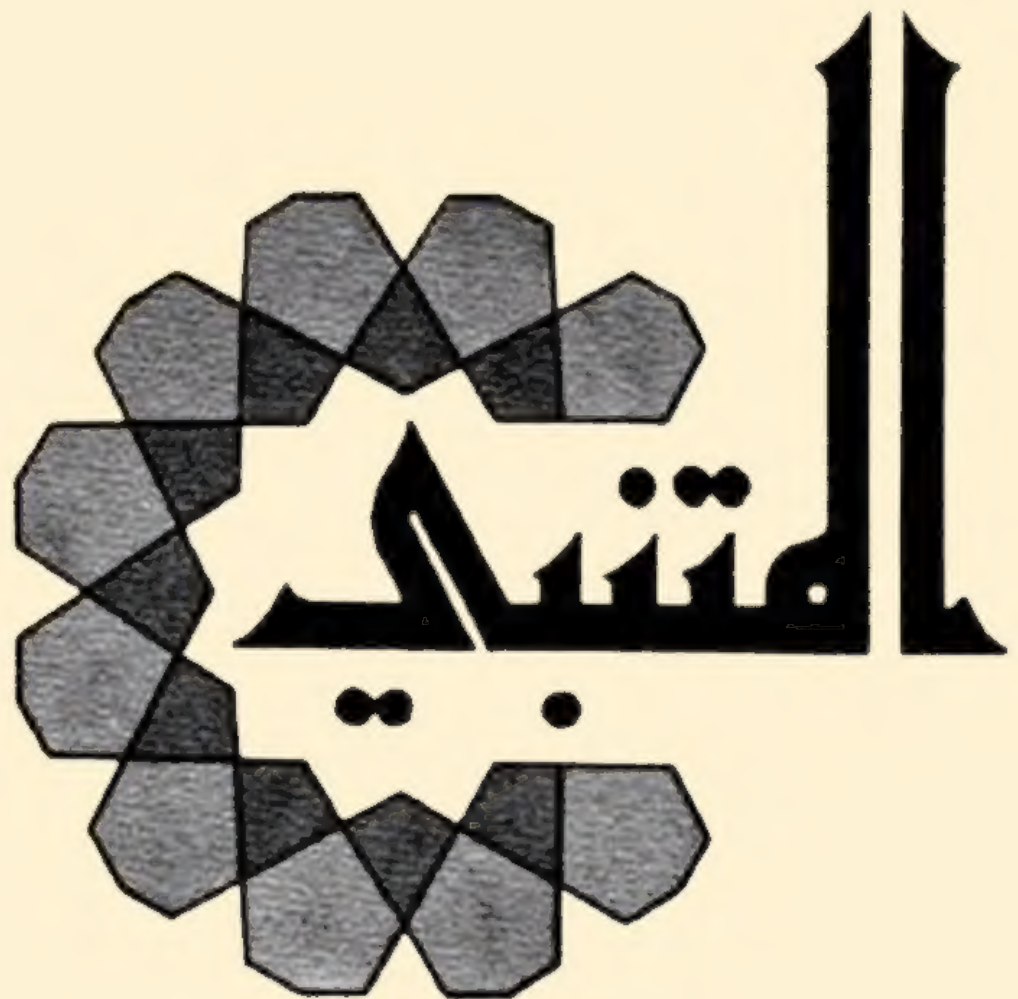


الجمهورية العراقية - وزارة الاعلام

الطبيعة عند المتنبي



د. عبد الله الطيب

الطبيعة عند المتنبي

منشورات وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية

صدر بمناسبة مهرجان المتنبي

بغداد - تشرين الثاني ١٩٧٧

وأحب إلى أن يقال أبو الطيب • وما أريد بقولهم المتنبى أول الامر
 الا النبز والعيب ، فصيّر الاستعمال ، وما كان لشعره من سيرورة
 وشهرة ، له كالحلية ، وذكر ابن خلكان ان بعض المغاربة كانوا يقولون
 (المتنبى) كأنهم يشيرون بذلك الى ما صار للقبه من دلالة على الفطنة
 وكشف ستار طبائع النفوس ، مكان دلالة الأولى على دعوى النبوة •
 هذا ، وقولنا الطبيعة نعى به ظاهراً معنى هذا اللفظ ، لانتعمق
 وراء ذلك بشيء ، والله دره أبى الطيب إذ يقول :

أَبْلَغُ مَا يُبْلَغُ الْمَرَادُ بِهِ الطَّبَعُ
 وَعِنْدَ التَّعَشُّقِ الزَّلْزَلُ

فمن ظاهر معناه صفات الأمكنة والأزمنة من أجواء وفصول
 وشمس وأصيل وقمر وليل ونجوم والحيوان برية وبحريه
 وجوئه ، وزعم الدكتور زكي مبارك رحمه الله في بعض ما كان يناقش
 به الدكتور أحمد أمين رحمه الله أيام الرسالة في سنوات الأربعين أن
 الغزل من باب الطبيعة لأن جمال النساء من مفاتن الطبيعة ذروة
 - ولا يخلو مقاله هذا من صواب باية ما كان كثيراً ما يقع وصف
 الرياض والغيوث في معرض ذكر الطلول ووقفات بكاء العشاق
 وصفات الظعائن الحسان كآيات لبيد :

فَعَلَا قَرُوعَ الْأَيْهَانِ وَأَطْمَلَتْ
بِالْجَلَّتَيْنِ ظَبَاؤُهَا وَثَعَامُهَا
وايات علقمة :

تَسْقَى مَذَانِبَ قَد مَالَتْ عَصِيفَتُهَا
حَدُّورُهَا مِنْ آتِي الْمَاءِ مَطْشُومٍ
وايات عنبرة :

أَوْ رَوْضَةَ انْفَا تَضَسَّنْ نَبْتُهَا
غَيْثٌ قَلِيلٌ الدَّمْنِ لَيْسَ بِسَعْلٍ
وكان ذو الرمة من الاسلاميين ربما مزج بين اوصاف النساء
والطبيعة مَزْجاً فَصَارَ بِذَلِكَ إِلَى نَوْعٍ مِنَ التَّصَوُّفِ . وَفِي شِعْرِهِ تَأْمِلُ
وَعَمَلٌ "كَثِيرٌ" وَيَعْجِبُنِي قَوْلُهُ :

ذَكَرْتُكَ أَنْ مَرَّتُ بِنَا أُمِّ شَادِرٍ
أَمَامَ الْمُطَايَا تَشْرِيبٍ وَنَسْنَحٍ
مِنَ الْمُؤَلِّفَاتِ الرَّمْلِ أَدْمَاءُ حُرَّةٍ

شُعَاعُ الضُّحَى فِي مَتْنِهَا يَتَوَضَّحُ
وَهَذَا صُورَةُ الظُّبْيَةِ وَرَمَالُهَا وَتَأَلَّقَ الشُّعَاعُ عَلَى مَتْنِهَا
أَوْضَحُ مِنْ صُورَةِ الْمَلِيحَةِ ، وَصَارَ ذُو الرِّمَّةِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ إِلَى
تَجْوِيدِ وَمَزْجِ بَيْنِ الطَّبِيعَةِ وَالْمَرْأَةِ أَقْوَى فِي قَوْلِهِ :
بَرَأَقَةُ الْجِدْرِ وَاللُّبَاتِ وَاضِحَةٌ
كَأَنَّهَا ظُبْيَةٌ أَفْطَى بِهَا لَجَبٌ

بَيْنَ النَّهَارِ وَبَيْنَ اللَّيْلِ مِنْ عِقْدٍ
عَلَى جَوَانِبِهِ الْأَسْبَاطُ وَالْهَدَبُ

صُورَةُ بَرُوزِ الطَّبِيعَةِ مِنْ كُتُبَانِ الرَّمْلِ وَاضْوَاءِ الْأَصِيلِ
وَضُرُوبِ نَبَاتِ الطَّرْفَاءِ وَالشُّجَيْرَاتِ ذَاتِ الْوَرَقِ السَّبْطِ ههنا
بَيِّنَةُ الْأَبْعَادِ وَالْمَعَالِمِ ، وَمَعَ ذَلِكَ تُخَالِطُهَا مَعَانِي الْغَزَلِ فِي هَذِهِ
الآيَاتِ : اللَّبَاتُ الْوَاضِحَةُ وَالْجِيدُ الْبَرَّاقُ مِنَ الْمَرْأَةِ •

وَأَتَمَّ ذُو الرِّمَةِ إِحْكَامَ الْمَرْزُوجِ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالْجَمَالِ الْبَشَرِيِّ
فِي قَوْلِهِ :

كَانَ عَمُودَ الْفَجْرِ جِيدًا وَلَبَّةً

بَعِيدَ الدَّجَى مِنْ حُرَّةِ الْوَجْهِ سَافِرٍ

هَنا صُورَةُ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ بَرَزَتْ سَافِرَةً الْوَجْهَ عَلَى رَأْسِهَا
الْخِمَارَ وَجِيدُهَا وَلَبَّاتُهَا مُشْرِقَةٌ وَمِنْ حَوْلِهَا سَوَادٌ • وَصُورَةُ
أَوَّلِ طُلُوعِ الْفَجْرِ بِنُورِهِ النَّاعِمِ الْمُخَالِطِ الظَّلَامِ وَشَفَقِهِ الْمَرْجُوحِ
الْبَيَاضِ بِالْأَرْجَوَانِ وَيُطِيفُ بِهِ بَرُوزُ الْأَفَاقِ بِنَبَاتِهَا وَسَهُولِهَا
وَرَمَاهَا ••

شَدَّ مَا تُشَبِّهِ هَذِهِ الصُّورَةَ لَوْحَةً لِنَارْدُو دَاقْنَشِي الَّتِي سَبَّاهَا
(الضَّاحِكَةُ) أَوْ (الْبَاسَةُ) (لَاجِيو كَنْدَا) •

وَقَدْ يَكْتَسِلُ الْمَرْءُ هَذَا مِنْ بَابِ تَوَارِدِ الْخَوَاطِرِ كَمَا يَقَعُ
الْحَافِرُ عَلَى الْحَافِرِ ، أَمْ وَقَعَ إِلَى لِنَارْدُو دَاقْنَشِي بَعْضُ مَا تُرْجِمُ إِلَى
اللاتينية أَوْ عَنْهَا مِنْ شِعْرِ غِيلَانَ • ؟

وَيُخِيلُ إِلَى الْكَثِيرِينَ ، وَهَذَا مِنْ بَعْضِ مَا دَفَعَ الدُّكْتُورُ زَكِي

مبارك رحمه الله الى الغضب وحيازة باب الغزل كله الى الطبيعة ، أنه
موضوع أشعار الطبيعة فن اختص به الافرنج ، وقصر فيه
العرب ، فهب شوقي رحمه الله في :

آذار أقبل قم بنا يا صاح
وغيره يستدركون ذلك .

والمنازل ربما صح عنه ان اوصاف البساتين ، وهي التي حلت
محله اوصاف الأبلر والقفار في المطالع والنسيب كما لاحظ ابن رشيق ،
قد كان لها اثر كبير في أشعار الاوربيين ، ممن عرفوا العريضة
فقرأوها في أشعار الاندلس مثل كلمة ابن الخطيب :

جادك الغيث إذا الغيث همي

يا زمان الوصل بالاندلس

لم يكن وصلك الا حلماً

في الكرى أو خلصة المختلس

إذ يقود الدهر أشتات المنى

تنقل الخطو على ما يرسم

زماً بين فرادى وثنى

مثلاً يجلو الوفود الموسم

والحيا قد جلل الروض سناً

فتغور الدهر منه تبسم

وأشعار ابن زيدون وابن خفاجة ، بكثرة المشاركة من أمثال الصنوبري

وأبي عبادة وابن الرومي وأبي تمام .

وَأَلْفِتُ النَّظَرَ ، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَيْسَ إِلَّا ، إِلَى قَصِيدَةِ الشَّاعِرِ
الْأَنْجَلِيزِيِّ أَنْدَرُو مَارْفِيل (١٦٢١ - ١٦٧٨) الَّتِي أَسَمَاهَا (خَوَاطِرٌ فِي
حَدِيقَةٍ) (Thoughts in a garden) فَإِنَّ أَوَّلَ مَا اسْتَهْلَهَا بِذِكْرِ النَّخْلَةِ وَلَيْسَ
فِي بِلَادِهِ نَخْلٌ ، وَالظِّلُّ الَّذِي وَصَفَهُ أَوَّلَ الْأَمْرِ ظِلُّ نَخْلَةٍ - ثُمَّ قَالَ إِنَّ خِلَاطَ
النَّاسِ لَيْسَ بِشَيْءٍ إِذَا قِيسَ إِلَى الْوَحْدَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْخُلُوصِ مِنْ دُنْيَا الْمَجْتَمَعِ
إِلَى فِكْرَةٍ خَضْرَاءَ فِي ظِلِّ أَخْضَرٍ •

Society is all but rude
To this delicious solitude
Annihilating all that's made
TO a green thought in a green shade

وَشَبَّهَ هَذَا بِقَوْلِ أَبِي الْعَلَاءِ لَا يَخْفَى :
ذَرَانِي وَكُتْبِي وَالرِّيَاضَ وَوَحْشَتِي
أَكُونُ كَوَحْشِيٍّ يَأْخُذِي الْأَمَاسُ
يَسُوفُ أَزْهَارَ الرِّيعِ تَعْلَةً
وَيَأْمَنُ فِي الْبَيْدَاءِ شَرَّ الْمَجَالِسِ
وَقَوْلُهُ الظِّلُّ الْأَخْضَرُ فِيهِ نَفْسُ أَبِي تَمَامٍ حَيْثُ قَالَ :

يَا صَاحِبِي تَقْصِيًا نَظْرِيكُمَا
تَرِيَا وَجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصُورُ
تَرِيَا نَهَارًا مَشْمَسًا قَدْ شَابَهُ
زَهْرُ الرِّبَا فَكَأَنَّمَا هُوَ مَقْمَرُ
فَكَأَنَّمَا هُوَ ظِلُّ أَخْضَرٍ •

وأوضح من هذا شبه قوله :

What wondrous life is this I lead
Ripe apples drop about my head;
The Luscious clusters of vine
Upon my mouth do crush their wine;
The nectarine and curious peach
Into my hands themselves do reach;
Stumblings on melons as I pass
Ensnared with flowers, I fall on grass.

بوَصَفَ ابن الرنومي للرازقي وأوصافِ ابي الطيّبِ لشار
شعْب بوان :

لها ثمرٌ تُشِيرُ اليك منه

بأشربةٍ وقفن بلا أواني

وكم يود المرء لو تفرغ بعض طلاب العربية لدرس اللاتينية ليطلعوا
على ما تُرجِم من أشعار العربية وميراث آدابها ذى الكنوز وأخذه من
بعد الافرنج أخذاً من دون اعتراف اما جهلاً أو عامدين • ويتسبب
اكثر افتتان الافرنج بالطبيعة في القرنين الماضيين إلى الحركة الرومانتيكية
والى تأثير جان جاك روسو ، وما خرج هؤلاء عن مذهب من سبقوهم إلا
بالذي روجّه روسو من مذهب قوة العاطفة والانفعال ازاء الطبيعة انفعالا
لا يخلو من روح تصوّف لعله اسلامي المعدن والسّخ في أصله ، وفي
تأملات روسو وهو يمشى منفردا وبعض ما جاء في اعترافاته ما
يُشعر بذلك •

هذا ولفت نظري من أشعار الانجليز الرومانتيكين ومن اليهم بوجه

خاص قصيدة كيتس عن البلبل (١٧٩٥ - ١٨٢١) فقد استلهمه بذكر الهمم
والخمر على النحو الذي كان يصنع شعراء العرب في مطالع النسيب القديم
وقصيدة وليه بلالك (١٧٥٧ - ١٨٢٧ م) يذكر النمر .

Tiger, tiger, burning bright
In the forests of the night

يا نَمْرُ يا نمر ..

ذا اللهب الوهاف ...

في غابات الظلام

ثم وصف خطأ النمر وذراعيه وجبروته (وحين أَخَذَ قَلْبَنِي فِي
الْوَجِيبِ ، يا لِسَاعِدٍ .. ويا لِلْقَدَمِ ... الرَّهِيْبِ) .

لا شك ان وليه بليك Willam Blake على ما ينسب اليه من الاصاله
والرومانسية الفذّة قد اطلع على ترجمة من كلمة ابي الطيب النادرة :

وَرَدَ اِذَا وَرَدَ الْبَحِيرَةُ شَارِبًا

وَرَدَ الْفَرَاتُ زَيْرَهُ وَالنَّيْلُ

مَا قَوَّبَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظَنَّتَا

تَحْتِ الدَّجَى نَارَ الْفَرَيْنِ حُلُولًا

يَطُءُ لَشْرَيَّ مَتَرَفَقًا مِنْ تَيْهِهِ

فَكَأَنَّهُ أَسْرَجَ يَجْسُرُ عَلَيْهِ

وَيَرْدُ عَفْرَتِهِ إِلَى يَأْفُوخِهِ

حَتَّى تَصِيرَ لِرَأْسِهِ إَكْلِيلًا

وَتَظُنُّهُ مِمَّا يُزَمِّجُ نَفْسَهُ

عَنْهَا لَشِدَّةَ غِيْظِهِ مَشْغُولًا

فَصَرَتْ مَخَافَتُهُ الْخُفَّ فَكَانَتْ
رَكِبَ الْكَمِيَّ جَوَادَهُ مَشْكُولًا
الْقَى فَرِيَسَتَهُ وَبَرَبَرٍ دُونَهَا
وَقَرَبَتْ قَرِيبًا خَالَهُ تَضْيِلًا
مَا زَالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فِي زَوْرِهِ
حَتَّى حَسِبَتْ الْعَرَضَ مِنْهُ الطُّولًا
أَسَدٌ يَرَى عَضُوبَهُ فِيكَ كِلَيْهِمَا
مَتْنًا أَزَلًا وَسَاعِدًا مَفْتُولًا
وَيَدُقُّ بِالصَّدْرِ الْحَجَارَ كَأَنَّهُ
يَبْغَى إِلَى مَا فِي الْحُضِيضِ سَيْلًا
أَنَفُ الْكَرِيمِ مِنَ الدُّنْيَةِ تَارِكٌ
فِي عَيْنِهِ الْعَدَدَ الْكَثِيرَ قَيْلًا
وَالْعَارُ مَضَاضٌ وَلَيْسَ بِخَائِفٍ
مَنْ حَتَمَهُ مِنْ خَافٍ مَا قَيْلًا

والذي يدعو الى هذا الظن ما في قصيدة وليم بلاك من نتبثع معاني
أبي الطيب في صفة عيني الأسد ، وهيئة تبهنسيه بمشيته ونجمعه
وزمجرتة ليئب وشجاعة قلبه وقلة اكترائه بالعدد الكثير ونوكهشم ابي
الطيب ان عنده معايير من فضايا النبيل الذي بكأبي الدنية من مضض
العار ****

What immortal hand or eye
Could frame thy fearful symmetry

هذا كأنه اختصار قول أبي الطيب :

حتى حَسِبْتَ العَرَضَ منه الطولا

In what distant deeps or skies

Burnt the fire of your eyes

..... burning bright

In the forests of the night...

وهو تكرار لقوله الأول

وقوله الذي ترجمته (غابات الدجى) أو (غابات الظلام) انسا هو من

قول أبي الطيب (تحت الدجى) •

وحام وليه بلاك حول معانى الحكمة التي عند أبي الطيب بنوع من

جَهْدٍ وتكلف غوص •

What the hammer? What the chain?

In What furnace was thy brain

وتكرار معنى النار لا يخفى ، والخطابة التي في الاستفهام قبل جوفاء

ذات قعقة ليست في مستوى ما تقدمها

ثم أي مخ للأسد ؟ ... إنسا هو قلبه الباسل ولو كان معه مخ

لكان ما قال أبو الطيب في غير هذه القصيدة :

لَوْلا اعْقُولُ لَكَانَ أَكْدَنِي ضَبَّغِ

أَكْدَنِي إِلَى شَرَفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ

هذا ومثله هذا التوافق والتوارد على الخواطر يَعْسُرُ أَنْ يُظَنَّ

فيه أنه لم يَنْظُرْ فيه الْآخِرُ وهو وليه بلاك الى الأول وهو أبو الطيب •

وقد نَعَلِمَ أَنَّ علوم العربِ وآدابهم كانت تَتَرَجَّمُ وبُلِّغَ بها أولو

الثقافة في أوربا - ومن حسب أنه انما كان يُتَرَجَّمُ الطب والتمسفة
والرياضيات والفلك وما إلى ذلك ولا يُؤْبَهُ إلى الأدب فهذا وهم •

وقد ذكر الكاتب الفرنسي ستندال (Stendhal) - (١٧٨٣-١٨٤٢)

في إحدى هوامش كتابه عن الحب في معرض الحديث عن عشق العرب وجيل
بشينة أن رجال الفكر الأوربيين لما وجدوا آداب العربية . مع الذي كان من
معرفة العرب بعلم يونان . لا تحاكي اساليب اللاتينية وآداب اليونان القديمة .
احتقروها واعرضوا عنها مع كثرة المخطوطات منها في باريس • ولعسري ان
في هذا الذي قاله لدليلا على ضلالتهم عليها • ولم يكن هو أول من فعل ذلك .
وفي ترجمته ما يفيد ان أول معرفته عن عشاق العرب كان عن طريق أحد
مدرسيه •

واذ ثبت اطلاع مفكري الأفرنج على آداب العربية فما نتبه اساليب
روائعها من روائعهم فعنها أخذوه . ولا تنتفت ما ظهره من إغراض
واحتقار فما كان ذلك الا دعوى وجحوداً • واحتيجان صبيحة على
الأرجح ، والله تعالى أعلم •

هذا واذ نحن بمعرض الحديث عن الأسد . فقصيدة البحري التي
يوازن بينها وبين قصيدة أبي الطيب . مع وصفها غيب الأسد والمنظر المحيط
به كانت أشد حرصا على اظهار بساطة المدوح ومهارته بالسلاح وفنون
القتال :

هزبراً مشى يَبْغِي هَزْبَرًا وَأَغْبَا

من القوم بَغْيَ بأسل الوجه اغبَا

حَسَلَتْ عَلَيْهِ السَّيْفُ لَا عِزْمَكَ أَتَنَى
وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حُدُودَهُ نَبَا
لَكِنَّ أَبَا الطُّبِّ مَعَ ذِكْرِهِ بَدْرُ بْنُ عَسَارٍ بِالْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَقَوْلِهِ
فِيهِ :

أَمْعَفَّرَ لِأَسَدٍ الْهَزْبَرِ بِسَوَّطِهِ
لَمَنْ أَدْخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا
(وَلَا شَيْءَ أَنْ بَدْرًا أَضْرِبَهُ هَذَا الْمَدْحُ) إِنَّمَا كَانَ إِعْجَابُهُ بِالْأَسَدِ . هَذَا
الْحَيَوَانِ الْفَذُّ الشَّجَاعَةُ الْبَاهِرُ الشَّرَاسَةُ . الْبَاسِلُ مَنَظَرُ الْوَجْهِ *
وَمَعَ أَنْ ظَاهَرَ قَوْلُهُ :

أَسَدٌ يَرَى عُضْوَيْهِ فَيَسُكُ كَيْهَمَا
مَتْنًا أَزَلَّ وَسَاعِدًا مَفْتُولَا
كَأَنَّهُ فِي صِفَةِ جِسْمِ بَدْرِ بْنِ عَسَارٍ الرِّيَاضِيِّ ذِي الْعَضَلَاتِ ، لَكِنَّ بَاطِنَهُ
فِي صِفَةِ الْأَسَدِ إِذْ أَمْتَنَ الْأَزْلُ وَالسَّاعِدُ الْمَفْتُولُ هُمَا عُضْوَا الْأَسَدِ وَالَّذِي عِنْدَ
بَدْرِ بْنِ عَسَارٍ شَيْءٌ " يُشَبَّهُ بِهِمَا . فَتَأَمَّلْ *
وَأَحْسَبْ أَنَّ أَبَا الطُّيْبِ لَمْ يَخْلُ مِنْ اسْتِشْعَارِ نَوْعِ سَمَاجَةٍ فِي
مَمْدُوحِهِ الْإِنطَاكِيِّ إِذْ قَالَ :

لَمْ نَنْتَقِدْ بَنِي مَنْ غِيَتْ سَوَى لَشَقٍ
وَلَا مِنْ الْبَحْرِ غَيْرَ الرِّيحِ وَالسَّفَنِ
وَلَا مِنْ الْبَيْتِ إِلَّا قَبْحُ مَنْظَرِهِ
وَمِنْ سِوَاهُ سَوَى مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ

وهل قبح الليث الا اَنّ منظره مُخيف ؟
القي فريسنه وبربر دونها
وقربت قُرْبًا خالسه تظفيلًا
أسد يرى عضويه فيك كليهما
مَتَنَّا أزل وسامعنا مفتولا

ووصف أبي الطيب للفارس والفرس بَعْدُ لا يَخْلُو من إشعار
بضعفهما ازاء هذا « الخُبْعَيْنَةُ الشَّجِيع » . ولعلّه ما غلبه الا كثرة
العدد عيه من كلّ جانب - نأمل قوله :

فَصَرَتْ مَخَافَتُهُ الْخُطَى فَكَأَنَّهَا
رَكِبَ الْكَسَى جَوَادَهُ مَسْكُولا
أليس فيه إشعار " بخوف الفارس كما قد خافت فرسه الضامّة
القصوص التي :

يَأْبَى تَفَرُّدُهَا لَهَا التَّمْثِيلُ

هذا وذكر (اللّثَقِ) الذي مرّ آنفاً ما أرى أبا الطيب قصّد بذكره
تفضيل صاحبه على الغيث كما قد قصد الى إنبات تجربة أحسنّها من
خُبْثِ اللّثَقِ - وهو الطين المزّج اندي نصيرُهُ الارضُ الزراعية غَيْرُ
ذاتِ الرمل بَعْدَ المطر - وساجةِ الوَحْلِ فيه * وقد بجُودُ الغيث
ولا يكون معه لثَقٌ * .

وشبيه بذكره اللّثَقُ ، ذكره الرّيح والسّفن إذ معنى ذلك الدُّوَار
ولعله عاناه في بعض أسفاره والله أعلم * هذا وأبو الطيب عيق الاعجاب
بجنس الأسد وفوله :

كل غاد حاجة يتمنى
بنفسه سنّ جهرة واغتيالاً
من أطاق التماس نىء غلاباً
وغتصبا لم يلتسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتسنى
ان يكون الغضنّ الرئبلا

فيه تأويلُ جانبٍ كثير من هذا الاعجاب . إذ الناس سبّع والأسد
أصرّح وأنبل سبعيةً منهم ومن قدر على أن يكونه في القوة
والإفداء والهيبة كأنه لا يتردد . وعند نفسه كان أبو الطيب أسداً
- كما قال :

فارم بي ما أردت منى فإنى
أسد القلب آدمى الرواء

وقريب منه فوله من قبل :

وجاهل مدءه في جهله ضحكى
حتى أتته يد فرأسه وفهم

إذا رأيت ثيوب الليث بارزة
فلا تظنّ ان الليث يتسم
فدل بهذا على المكتمن في نفسه من ان صاحب القلب الاسدي أسد له
انياب وأظفار فلا عجب أن استشعر نحوه سدوحوه كل حذر .

وهو القائل يطلب حلف أسد الفراديس :-

أجارك يا أسد الفراديس مكرم
فتسكن نفسي أم مهان فمسلم
ورائي وقدّامى عداة كثيرة
أحاذر من نص ومنك ومنهم

فهل لت في حلفي على ما أريده

فأني بأَسباب المعيشة أعلم

ولم يخل في هذا من ظرِّ إلى كلسه القتال الكلابي حيث زعم أنه
صحب النسر في الغار:

ولي صاحب في الغار هدك صاحباً

هو الجوز إلا أنه لا يُعلل

إذا ما التقينا كان جُلّ حديثنا

صنات وطرّف كالمعابيل أطحن

فأغلبته في صنعه الزاد إنني

أميط الأذى عنه وما إن يهتل

وكأنّ بيّات القتال هذه من فكاكات العرب ونواديرهم

وأكاذيبهم كالذي زعموا من نزوج السّعلالة وقيّال الشّقّ
والغول .

ويقول أبو الطيب :

ومن يجعد الضّرغام بازا لصيّده

تصيّده الضّرغام فيما تصيّدا

فما كان يغيب عنه استحالة حلف أسد الفرديس . ولكنّه

كما قال :

تمنّ يمدّ استهه بذكره

وان كان لا يجدى فتيلاً ولا يجدى

وَغِيْظَ عَلَى الْإِيَّامِ كَالنَّارِ فِي الْحَشَى

ولكنه غيظ الأسير على القد

وقد نَعَلِمَ قِصَّةَ نَاسِكٍ كَلِيلَةٍ وَدِرْمَةٍ إِذْ أَصَابَ فَأَرَةً صَغِيرَةً
فَدَعَا اللَّهَ أَنْ تَصِيرَ أَدَمِيَّةً حَتَّى يَقْدَرَ عَلَى تَرْبِيتِهَا فَلَمَّا شَبَّتْ وَارَادَ
تَزْوِيجَهَا لَمْ يَجِدْ لَهَا مِمَّا يَعْجِبُهَا كَفْتًا إِلَّا الْفَأْرَ فَدَعَا اللَّهَ أَنْ تَكُونَ فَأَرَةً *
وقد نعلم إعجاب الرومان تكيين ووليه بلاك منهم - بيدأوة الأعراب
وتوحشهم *

فلعل هذا الإعجاب دفعه وهو لا بشعر الى أن يحول ما أصاب
من صفة الأسد في الذي بلغه من شعر المتنبى أو ما ترتب بعد
تأثيره أو حذى فيه على أسلوبه . فيجعله في لشر :

Tigre, tiger, burning bright

In the forests of the night.

وما عرف أو أبه أن نمره مخطط . وهو ضرب من وحوش
بلاد الهند . وأن نسر العرب ذو نقط . ومنه قولهم نسر يعنون
الثوب ذا النقط والالوان وإياه عنى ابن مالت حيث قال :-

ولا يجوز الابتدا بالنكره ما لم تقد كعند زيد نمره

ولعله لو فطن الى ذلك لكان سى كلته هذه بالأسد مكان النسر ،
أم تراه عبدا أثر تسميتها النمر بقصد التعسية وليخفى مكان أخذه حيث
أخذ من أبى الطيب ؟ هذا ومن عجيب أمر لامية الأسد هذه قوله :

سبع ابن عته به وبحاله

فنجأ يهرورن أمس منك مهولا

ولست الهرولة بأسرع الجري . كالذي يقع عند الفرار من مطاردٍ •
ويذكر أصحاب الصيْدِ ومعرفة الوحوش أن الأسد اذا قَتَلَ بسوْضعٍ
سارعت الأسود الى الاقتتال منه تَسْتَوْبِيْئُهُ •

وأمره ما فرء منه فراره وكقته ألاء يَسُون قَتِيلًا
وكانَ هذا يقوله على لسانِ الأسد الذي أستوبأ المكان فانتقل عنه :

تَلِفَ الذي اتخَذَ الجِراءَ خُطَّةَ

وعظ الذي اتخَذَ الفِرارَ خَيْلاً

وهذا كارتداء للأسود عمة ، أنها مع شجاعته وقوَّة اجسادها لانفوى
على مكر الانسان واحتياله واغتياله • وهل قَتَلَتْ أَسَدٌ اللامية الا
وَتَبَّئَتْ . حيث تنقته الرماح . فنزف ثم :

خَذَلَتْهُ قُوَّتُهُ وَقَدْ كَافَحَتْهُ فَاسْتَنْصَرَ التَّسْلِيمَ وَالتَّجْدِيلاً

قَبِضَتْ مَنِئْثَةً يَدَيْهِ وَعُنُقَهُ فَكَأْنَمَا صَادَقَتْهُ مَغْلُولاً

هذا وقال ابن الاثير عن هذه اللامية ولا مينه التي رثى بها أده سيف الدولة :

نَعِدْهُ الْمُشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَائِيَّ وَبَقَتْنَا الْمَوْنَ بِلَا قِتَالِ

إنهما ، كفى بهما شاهداً على ما ذكرته من انفراده بالابداع ، والذي
يُشِيرُ اِليه ههنا ما ذكره قوله عند الموازنة بينه وبين الطائيين ولم تأملت
شعره وجدته أقساماً خمسة . خمس في الغاية التي انفرَدَ بها دون
غيره ، ... وهي الغاية التي وصف بعض امثلتها في بعض المواضع فقال :
« وهذا الموضع لم يأت فيه أحدٌ بما يَثْبُت على المحكِّ الا أبو الطيب
وحده وأما غيرُه من مُفْلِقِي الشُعراء قديماً وحديثاً فانهم قد قَصَرُوا
عنه » هذا مع زعمه أن أبا الطيب أراد ان يسلك مسلك أبي تمام

فَقَصَّرَتْ عَنْهُ خَطَاهُ وَلَمْ يُعْطِهِ الشَّعْرُ مِنْ قِيَادِهِ مَا أَعْطَاهُ • وَهَذَا أَسْوَقُهُ
لِمَجْرَدِ التَّنْبِيهِ لَا لِأَزْعَمِهِ بِهِ أَنَّ ابْنَ الْإِثِيرِ وَقَعَ بِهِ فِي تَنَاقُضٍ • إِذْ لَا رَيْبَ
أَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ رَوَائِعَ الْمُتَنَبِّيِ أَجُودُ مِنْ رَوَائِعِ سِوَاهُ وَلِذَلِكَ زَعَمَ أَنَّهُ خَاتِمُ
الشُّعْرَاءِ وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِهِ :

لَا تَسْخَنُ كَرِيماً بَعْدَ رُؤْيَيْتِهِ
إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدَا خُتَمُوا

وَلَا تُبَالِ بِشِعْرِ بَعْدَ شَاعِرِهِ
قَدْ أَفْسَدَ الْقَوْلُ حَتَّى أَحْمَدَ الصَّمِّ

وَلَيْتَ أَبَا الطَّيِّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَاشَ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا لِيَشْهَدَ كَيْفَ أَفْسَدَ
الْقَوْلُ وَأَحْمَدَ الصَّمِّ وَجَاءَتْنَا نُسُورُ أَضْرَابِ « بِلَالِكَ » الَّتِي كَانَتْ
عِنْدَهُ أَسَدًا •••••

أَسَدًا فَرَأَيْتُهَا الْأَسُودَ يَقُودُهَا
أَسَدٌ تَكُونُ لَهُ الْأَسُودُ ثَعَالِبَا

فَصَيَّرْنَاهَا نَحْنُ بِافْتِنَانِ الْمَحَاكَاةِ الْكَاذِبَةِ سَنَانِيرَ •

هَذَا ، وَمَا بَرَزَ أَبُو الطَّيِّبِ هَذَا التَّبَرُّيزُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ الْإِثِيرِ
وَجَزَمَ بِهِ الذَّهَبِيُّ إِذْ قَالَ « لَيْسَ فِي الْعَالَمِ أَحَدٌ أَشْعَرُ مِنْهُ أَمَّا مِثْلُهُ فَقَلِيلٌ » .
بِأَنَّهُ أَدَقُّ الشُّعْرَاءِ غَوْصًا عَلَى الْمَعَانِي أَوْ أَكْثَرَهُمْ تَشْبِيهًا وَاسْتِعَارَةً ، أَوْ
أَخْبَرَهُمْ بِتَوْلِيدِ الْمَعَانِي أَوْ أَشَدَّهُمْ افْتِنَانًا فِي الْأَوْصَافِ ، أَوْ أَرْفَقَهُمْ
غَزَلًا ، أَوْ أَقْوَاهُمْ أَسْرَ جَزَالَةِ الْفَاطِظِ ، أَوْ أَجْهَرَهُمْ رَتَّةَ جَرَسِ
غَنَاءٍ . وَأَبْرَعَهُمْ وَشَى صِنَاعَةٍ بَدِيعٍ ••• كُلُّ أُولَئِكَ لَهُ مِنْهُمْ نَصِيبٌ
جَيِّدٌ وَافٍ ، غَيْرَ أَنَّ مِنَ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَتَقَدَّمُ فِيهِمْ جَسِيعًا أَوْ فِي بَعْضِهِمْ دُونَ

بعض كالذي ذكر ابن الاثير من أمر أبي تمام حيث قال . هو رب معانٍ وصيقل البابِ وأذهانٍ . وجعل أبا الطيب دونه في هذا المسك وكالذي ذكره ابن رشيق من تقديم ابن الرومي في باب الغوص على المعاني ونوليدها . وكأنَّ الإجماع قائم بين النقاد على أنَّ ديباجة البحري في المكان الذي لا يدرك . ولذلك قال ابن الاثير إنه أجاد سبك اللفظ على المعنى وأراد ان يشعر فغنى . وإذن فبماذا برز أبو الطيب ؟ . وأحسب أنَّ ابن الاثير قد وهم في باب موازنته بين لبحري وأبي الطيب في نعت الاسد اذ فضل هذا ثم قال في توضيح أسباب هذا التفضيل : « والبحري وإن كان أفضل من المتبني في صوغ الألفاظ وملاوذة السبب فالمتبني أفضل منه في الغوص على المعاني ، ومحل وهه أن هذه الصفة هي عينها التي قدّم بها أبا تمام عليه ثم عدل عن تقديمه فيها حيث يكون أبو الطيب انفرد بالابداع وذلك في الخمس الذي نص عليه ولا يمكن ان يكون انفرد بالابداع بسبب الغوص على المعاني وهو ما خبرنا أنه قد قصرت فيه خطاه عن خطأ أبي تمام .

وأقرب الى الصواب ما ذكره ابن رشيق من أنَّ أبا الطيب كان يهجم على معانيه كالفارس . والحق أن سبب تبريز أبي الطيب هو قوة شخصيته ، وحرارة عاطفته وصِدْفُه في البيان عن نفسه . وقد نبّه ابن جني على هذا المعنى في الخصائص اذ قال عنه : « وما عرفته الا صادقا » . وقد فطن أبو العلاء الى أمر شخصية أبي الطيب حين اعتذر له في رسالة الغفران عما أخذه عليه ابن الفارج من التصغير فقال بعد ان استشهد بأمثلة منها :

أَذْمَ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلَهُ
وَنَادَى الْخَوِيدُ عَنْ لَيْلِنَا
مَنْ لِي بِفَهْمِ أَهْلٍ عَصْرٍ... الخ

، وَلَا مَلَامَةَ عَلَيْهِ . إِنَّمَا هِيَ عَادَةٌ صَارَتْ كَالطَّبْعِ . فَمَا حَسَنَ بِهَا

مَأْلُوفِ الرَّبْعِ ، •

وَقَدْ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَثِيرَ الْإِسْفَارِ • نَقَّلَ بَيْنَ الْعِرَاقِ
وَالشَّامِ أَيَّامَ صِبَاهٍ وَشَبَابِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْقَى سَيْفُ الدَّوْلَةِ • وَقَالَ فِي الْقَصِيدَةِ
الَّتِي مَدَحَ بِهَا أَبَا الْقَاسِمِ الْعُلَوِيِّ :

إِلَى نَعِيرِي قَصْدٌ كُلُّ عَجِيْبَةٍ
كَأَنِّي عَجِيبٌ فِي عَيُونِ الْعَجَائِبِ
بِأَيِّ بِلَادٍ لَمْ أَجُرْ ذَوَائِبِي
وَأَيُّ مَكَانٍ لَمْ تَطَأْهُ رِكَائِبِي
وَقَالَ فِي مَرثِيَّتِهِ لِأُمِّهِ :

لَيْسَ لَدَى يَوْمٍ النِّسَامَتَيْنِ بِسَوْتِهَا
فَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لِأَنْفُسِهِمْ رَغَا
بَعْرَبٌ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ
وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالْقِهِ حُكْمًا
وَلَا سَالِكًا إِلَّا فُؤَادَ عَجَاجَةٍ
وَلَا وَاجِدًا إِلَّا لِمَكْرُمَةٍ طَعْمًا
يَقُولُونَ لِي مَا أَتَيْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ
وَمَا تَبْتَغِي مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسَمَّى

وقال يَذْكُرُ فَقَرَهُ وَسَيَّرَهُ عَلَى قَدَمِيهِ :

وَمَهْمُهُ جُبْتُهُ عَلَى غَدَمِي

تَقْصُرُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُّ

بِصَارْمِي مَرْتَدٍ مَخْبَرَتِي

مُجْتَزِيءٌ بِالظَّلَامِ مُشْتَبِسٌ

إِذَا صَدِيقٌ نَكِرْتُ جَانِبَهُ

نَسِمٌ تُعِينِي فِي فِرَاقِهِ الْحِيلُ

فِي سَعَةِ الْخَافِقَيْنِ مضطربٌ

وَفِي بِلَادٍ مِنْ أَخْتِهَا بَدَلٌ

وَتَنْقَلُ أَيَّامُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ يَصْحَبُهُ فِي حُرُوبِهِ وَفِي سَوَى ذَلِكَ مِنْ

ضُرُوبِ ارْتِحَالِهِ وَكَثُرَ مَا كَانَ يَغْزُو سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِلَادَ الرُّومِ ، وَرَبَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْقَبَائِلِ فَحَارَبَهُمْ فِي الْبَادِيَةِ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

طَلَبْتَهُمْ عَلَى الْأَمْوَاهِ حَتَّى

تَخَوْفَ أَنْ تَفْتَشَّهَ السَّحَابُ

فَبَتَّ لَيَالِيَا لَا نَوْمَ فِيهَا

تَخْبُ بِكَ الْمُسَوِّمَةُ الْعِرَابُ

يَهْزُدُ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيَهُ

كَمَا نَفَضْتَ جَنَاحِيَهُ الْعُقَبُ

وَتَسْأَلُ عَنْهُمْ الْفُلُوتُ حَتَّى

أَجَابَكَ بَعْضُهَا وَهُمْ الْجَوَابُ

وفي سفر الغزوات الى أرض الروم يقول مثلاً :
واشتكى بلاد الله ما الرنوم أهلها
بهذا وما فيها لمجدك جاحد
شنت بها الغارات حتى تركتها
وجفن الذي خلف الفرنجة شاهد
ومثلاً :

وصول إلى المستصعبات بخيله
فلو كان قرن الشمس ماءً لأوردا
سريت إلى جيحان من أرض آمد
ثلاثاً لقد أدناك ركض وأبعدا
وبعد طول ملازمته لسيف الدولة سافر إلى مصر ، وكان بعض سفره
فراراً حثياً وإلى ذلك أشار في قوله من قصيدة مدح بها كافوراً :
وجدت أنفع مالٍ كنت أذخره
ما في السوابق من جرى وتقريب
فتنّ المفوز حتى قال قائلها
ماذا لقينا من الجرود السراحيب
نهوى بسجردٍ ليست مذهبه
لبس ثوبٍ وما كؤلٍ ومشروب
رَمَى النجوم بعيني من يحاولها
كأنها سلبٌ في عينٍ مسلوب

وأحسب أنه الى هنا نظر أبو العلاء في قوله :

ولا صَحِبْتُ ذُنَابَ الْإِنْسِ طَاوِيَةً

تَرَاقِبُ الْجَدَى فِي لُخَضْرَاءٍ مَسْبُوتَا

وقد المَعَتُّ بهذا المعنى في كتابي (مع أبي الطيب) . وقد كان أبو العلاء رحمه الله كثير الأخذ من أبي الطيب والتسبيق عى دَرَجَ مَراقِيه .

وقِصَّةُ فراره من كافورٍ معروفة . وقد ذكرها وذكر الإبلُ البُجَاوِيَّةَ التي اجتاز عليها التَّيَّه في كلمته :

الأكلُ ماشيةً لَخِيْزَلِيْ فِدَى كُلِّ مَانِيَةٍ الْهَيْدِي
وَكُلَّ نَجَاةٍ بُجَاوِيَّةٍ خَنُوفٍ وَمَا بِي حُسْنُ السِّنِي
ولكنهنَّ حِبَالُ الْحَيَاةِ وَكَيْدُ الْعَدَاةِ وَمَيْطُ الْأَذَى

حتى صار الى العراق .

وقد زارَ أرضَ فارس ثم عاد من عضد الدولة وهو يقول :

أَرَى أَسْفَى وَمَا بِرَّنا بَعِيداً

فَكَيْفَ إِذَا غَدَا السَّيْرُ ابْتِرَاكاً

فَزُلْ يا بُعْسُدُ عَنْ أَيْدِي رُكَّابِ

لَهَا وَقَعَ الْأَسِنَّةُ فِي حَتَاك

وَأَيَّاءَ شِئْتِ يَا ضُرُوقِي فَكُونِي

أَذَاةً أَوْ نَجَاةً أَوْ هَلَاكاً

رووا أن عضد الدولة قال : (تَظَيَّرْتُ عِيَهُ مِنْ تَرَكِهِ النِّجَاةَ بَيْنَ الْأَذَاةِ وَالْهَلَاكِ .)

وقال الثعالبي في نحو من هذا المعنى جعل قافية البيت الهلاك فهك .
هذا وجميع ما شاهده أبو الطيب وانطبع في نفسه من تجارب أسفاره قد
أفصح عنه بصدق وحرارة عاقته وقوة شخصيته . فمن ذلك ما
ضمنه التشبيه والاستعارة وصور البيان مثل قوله :

هو البحر غص فيه إذا كان ساكناً
على الدرر واحذره إذا كان مزبداً
وقوله :

ويخسى عباب البحر وهو مكانه
فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبأ
وقوله :

هل لحدث الحراء تعرف لونها
ونعم أي الساقين الغمام
بناها ذعلى والقنا تقرأ القنا
وموج المنايا حولها متلاطم
فكما في البيتين الأولين صورة البحر مزبداً وصورته يغشى
الساحل وبض صخره ورملة ههنا صورة صخرة عاتية وسط
البحر يحيط بها صخب الأمواج وهي الصورة المستعارة لصفة
القلعة وصراع الجيوش حولها ههنا .
وقوله :

حواليه بحر انتجاف مائج
يسير به طود من الخيل أيهم

وههنا أيضا كاميناً وراء الاستعارة إحساس "قوى" باتساع
البحر وعظمته وارتفاع الجبل وشموخه . ولا ريب أن هذا شعور
انطبع في نفس أبي الطيب من مشاهدة جبال لبنان وشواضي سواحل
الشام . ومما يدل على صحة هذا الذي نذهب إليه قوله مثلاً
يشبّه نفسه بالبحر والجبال على تحوّل من تشبيهه نفسه بالأسد :

وكم من جبالٍ جُبْتُ تشهّدُ أنّي

الجبالُ وبحرٍ شاهدُ أنّي البحرُ

ومن امثلة ما ضمّنه التشبيه والصّور البيانية من انطبع في نفسه
إزاء بعض مظاهر الطبيعة قوله :

وجيشٍ يُثنّى كلّ طودٍ كأنّه

خريقٍ رياحٍ واجهتْ غصناً رطباً

فهنا شعور رهبة إزاء خريق الرياح وهيأه . وتأمّلة
دقيقة لخفق ورَيقات الأغصان الخضر الدفّق النواضر
وهي ترقص وتثنّى لهبوب الرّيح صغيراتٍ جذّلات في أضراف
الشجرات الكبيرة الثابتات للعصف الشديد من حولهن - كهذا الطود
والجيوش تتخلّله كلّ صخرةٍ ومسرٍّ منه كأنما هي غصن رطب
صغير مهتز .

وبعد هذا البيت قوله :

كأنّ نجومَ الليل خافت مغاره

فمدّت عليها من عجاجته حجباً

وأحسب أن هذه العجاجة في الحقيقة ما كانت الا حريق الرياح

وافتن أبو الطيب فأشرب ذلك نَقَساً من خبر يوم حليلة الذي زعموا أنَّ
العجاجَ فيه غَطَّى ضَوْءُ الشَّسِ حتى بدت النجومُ وقد عكس أبو
الطيب الصورة كما ترى •

وقوله :

وكانوا يَرُوعُونَ السُّلُوكَ بأنْ بَدَّوْا
وَأَنْ نَبَتَتْ فِي الْمَاءِ نَبَتُ الْغَلْفَقِ

والشاهد هنا صورة الغلفق وهو ما غلظ من الطُّحْب الطافي
على الماء •

وان يكن أَسَاعِ الصَّحْرَاءِ بِمَنْزِلَةِ بَحْرِ مُسْتَدٍّ . فالمدائنُ وزروعُ أهلِ
الريفِ في أَصْرَافِهِ وأمرؤُهُمْ وملوكُهُمْ كلُّ ذلك طافٍ كما يطفو الْغَلْفَقُ •

وقوله :

تَعَوَّدَ الْاِ تَقْضِمُ الْخَيْلُ حَبَّه
إِذَا الْهَامُ لَمْ تَرْفَعْ جُنُوبَ الْعَلَائِقِ

وَلَا تَرِدُ الْغُدْرَانُ الْاِ وَمَاؤُهَا
مِنَ الدَّمِّ كَالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ

وما أَحْسَبَ أَنَّ أبا الطيب جمع بين صورةِ الرَّيْحَانِ نحتِ
الشَّقَائِقِ الْبَهْجَةِ الْجَبِيلَةِ وصورةِ الْغُدْرَانِ على أَصْرَافِ سَطْحِ
مَائِهَا الدَّمِّ . الا لِشَاهِدَتِهِ مَنْظَرًا جمع بينهما انطبعت صورتهُ في
ذِهْنِهِ - وَحُسْنِيَّةُ الْحَرْبِ . ووداعةُ الطَّيْعَةِ . فتأمل •

وقوله :

قَدْ سَوَدَّتْ شَجَرُ الْجِبَالِ شُعُورَهُمْ
فَكَأَنَّ فِيهِ مُسِفَّةَ الْغُرَبَانِ
وَجَرَى عَلَى الْوَرَقِ النَّجِيعُ الْقَانِي
فَكَأَنَّهُ النَّارُ نَجُّ فِي الْأَغْصَانِ

وملاحظة المناظر الطبيعية - مَنَظَرُ الْغُرَبَانِ مُسِفَّةً عَلَى الشَّجَرِ
مُسْوَدَّةً بَيْنَ خُضْرَةِ أَغْصَانِهِ وَغَيْرِهَا وَمَنَظَرُ النَّارِ عَلَى
الْأَغْصَانِ - بَيِّنَةٌ ههنا - وَلَا أَرَى إِلَّا أَنَّ أَبَا الضَّيْبِ قَدْ نَظَرَ إِلَى قَوْلِ
أَبِي تَمَامٍ :

مَا رُبَّعُ مِئَّةٍ مَعُورًا يُطِيفُ بِهِ
غَيَّالَانِ أَنْهَى رُبَّ مِنْ رُبْعَيْهَا الْخَرْبُ
وَلَا الْخُدُودُ وَإِنْ أَدْمَيْنَ مِنْ خَجَلٍ
أَشْهَى إِلَى نَاضِرٍ مِنْ خَدَّهَا التَّرَبُّ
سَمَاجَةٌ غَنِيتُ مِنْهَا الْعُيُونُ بِهَا
عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَدَأَ أَوْ مَنَظَرٍ عَجَبُ

والذي حَسَّنَهَا الْإِتِّصَارُ : وَلَقَوَّةِ شُعُورِ أَبِي الضَّيْبِ بِهِ أَنَّهُ يَحْتَاجُ
إِلَى أَنْ يُفَسِّرَهُ كَمَا صَنَعَ أَبُو تَمَامٍ •

وقوله :

تَلَاكَ وَبَعْضُ الْغَيْثِ يَتَّبَعُ بَعْضَهُ
مَنْ الشَّامِ يَتَلَوُ الْحَازِقَ السُّتَعْلَمُ

والشاهد ها منظر نتابع السحاب . صِغَارُهُ يَتَلَوْنَ كِبَارَهُ وَكِبَرَاهُنِ
المُبرِّقَةُ مِنْ بُعْدٍ كَأَنَّا تَجْتَذِرُهُنَّ اجْتِدَابًا .
وقوله :

لَمَّا قَفَيْتَ مِنَ السَّوَاهِلِ نَحُونَا
قَفَيْتَ إِلَيْهَا وَحُسْنَةً مِنْ عِنْدِنَا

أَرْجَ الطَّرِيقُ فَمَا مَرَرْتَ بِسَوْضِعٍ
إِلَّا أَقَامَ بِهِ الشَّدَا مُسْتَوْطِنَا

لَوْ تَعَقَّرَ الشَّجَرُ الَّتِي قَابَلْتَهَا
مَدَّتْ مَحِيَّةً إِلَيْكَ الْأَغْصَانَا

هذا الأَرَجُ وهذه الاشجارُ ذاتُ العُصُونِ أَتَرَاهَا مُجَرَّدَ الْفَاضِ
أَرِيدُ بِهَا مَعْنَى الْمِبَالِغَةِ أَمْ أَوْعِيَّةَ شُعُورٍ نَابِضٍ دَى إِيْحَاءٍ فَوَى بِتَجْرِبَةٍ
أَحْسَنَهَا الشَّاعِرُ وَانْضَبَعَتْ فِي نَفْسِهِ كَلَّ انْضَبَاعٍ ؟
وقوله :

مُنْذُ احْتَبَيْتَ بَانْطَاكِيَّةَ اعْتَدَلْتَ
حَتَّى كَأَنَّ دِرْوَى الْأَوْتَارِ فِي هَدَنِ

وَمِنْ مَرَرْتَ عَلَى أَمْثَوَادِهَا فَرَعْتَ
مِنَ الشَّجُودِ فَلَا نَبْتَ عَلَى الْقَنْنِ

فَههنا نَجْرِبَةُ مَنْظَرِ رُؤُسِ الْجِبَالِ الْمُرْتَفَعَاتِ الصُّنْعِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ
النَّاعِرُ قَدْ اجْتَازَ مَرْوَجًا وَغَابَاتٍ - شَاهِدْ ذَلِكَ قَوْلُهُ : فَلَا نَبْتَ
عَلَى لِقَنْنٍ .

وقوله :

أَنَا صَخْرَةٌ الْوَادِي إِذْ مَا زُوْحِمَتْ
وَإِذَا نَطَقْتُ فَأَتَنِّي الْجُوزَاءُ

وزعم بعض الشراح ان مراده بذكر الجوزاءِ علو المنطق وما أرى إلا انه اراد أن منطقهُ باهرٌ "ذو ألقٍ كما تتألق أنجم الجوزاء الثلاث اللاتي هنَّ لها كالنطق ومكانهن في البية الظلماء واضح" ايما وضوح .

وقوله :

وَإِنْ يَكْ سَيْفٌ دَوْلَةٌ غَيْرَ قَيْسٍ
فَسِنَّهُ جُسُودٌ قَيْسٍ وَأَشْيَابُ

وَتَحْتَ رَبَابِهِ نَبَتُوا وَأَثَرُوا
وَفِي أَيَّامِهِ كَثُرُوا وَطَابُوا

والشاهد هنا منظر النبات الجديد . وقد كان أبو الطيب بدويّاً مثل هؤلاء الذين حاربوا سيف الدولة وكان هو شديد العطف عليهم والسَّيْلُ الى جانبهم ، وفي باديتهم بادية الشام . كان قضى شَطْراً صالحاً من أيام شبابه .

وقوله :

إِذَا زَلِقَتْ مَشْيَتَهَا بِطُونُهَا
كَمَا تَتَمَشَّى فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاغِمِ

والبيت في صفة الخيل وتأمّل انسياب الثعابين بطونها هنا جلي كما ترى .

وباب تشبيهات أبي الطيب وضروب مجازه مجال " واسع وأمشته مما
 منه شفاف " بتجارب سقره واحساسه بجمال الطبيعة كثير . فنكتفي بهذا
 القدر الذي اوردناه وربما وقع في ما سنستشهد به من بعد ، على غير بابه
 إن شاء الله . ما هو من معدنه وسنخه • هذا والضرب الثاني ميت يقع
 من نجارب الطبيعة في شعر أبي الطيب ما يأتي به أثناء الأغراض التي
 يتناولها كأنه جزء " منها أو مستطرد " به عنها أو متسم معناها أو من
 هذا المجرى •

ملا قوله :

فأضحّت كأنّ الشّور من فوق بدئه
 إلى الأرض قد شقّ الكواكب والشهب
 نصد الرياح الهوج عنها مهابة
 وتفرّع منها الطير أن تلقط الحب
 وتردى الجناد الجرد فوق جبالها
 وقد ندّف الصنبر في مرقها العطب

تأمل قوله « تردى الجناد الجرد » وما فيها من محاكاة وقع
 حوافرها والصنبر بكسر الصاد ونشديد النون المفتوحة وسكون الباء هو
 البرد لنشديد والعطب بضم العين وسكون الطاء هو القطن •
 والغرض هنا وصف قنعة مرعش • وموضوع الطبيعة المذكور
 أثناء هذا الغرض وفيه تجرّبة أبي الطيب مضمّة ، وصف هذه
 الرياح الهوج والطير التي أفرعها زفيف الرياح • وكأنّ أبا الطيب قد
 نظر إلى علقمة حيث قال :

كَانَهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ

صَوَاعِقُهَا تُضِيرُهُن دَبِيبٌ

أَي عَجَزْنَ عَنِ الطَّيْرَانِ لِقَزَعِهِنَّ •

ثُمَّ نَبَعَ هُبُوبَ الرِّيحِ نَزُولُ الشَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَتَنَادَرُ فُطُنُ الصَّقِيعِ
وَقَدْ خَرَجَ أَبُو الطَّيِّبِ وَصَحْبُهُ يَرُوضُونَ جِيَادًا جُرْدًا - وَهِيَ صِيبُ
ارْتِيَاعِ نَفْسٍ وَبَهْجَتُهَا عِنْدَ الشَّلْجِ • وَلَا يَخْشَوْنَ قُوَّةَ () وَفَدَ
نَدَفَ الصَّتْبَرِ فِي طَرَقِهَا الْعُطْبَا (مِنْ نَظَرٍ إِلَى فَوْقِ الْبَرْدِ :

وَأَقْبَلَ مَوْضُوعَ الصَّقِيعِ كَأَنَّهُ

عَلَى سَرَواتِ الشُّوقِ فُطُنٌ مِنْدَفٌ

وَقَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ بَعْدَهُ فِيهِ الْحَرَكَةُ - نَدَاثِرُ الصَّقِيعِ كَالْمُطْنِ •
وَزَفِيفُ الرِّيحِ وَعَصْفُهَا •

وَكَانَ قَوْلُهُ : (الْجِيَادُ الْجُرْدُ) فِيهِ نَوْعٌ مِنْ إِيحَاءٍ بِخُلُوعِ مَكَانٍ
مِنْ خُضْرَةِ النَّبَاتِ إِلَّا الشَّجَرَ الْعَارِيَّ السَّلِيبَ •

وَمَا يَدُلُّهُ عَلَى قُوَّةِ انْطِبَاعِ صُورَةِ الشَّلْجِ وَحَسَرِ الْبَرَدِ
عِنْدَ أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلُهُ :

حَتَّى عَبْرَنْ بِأَرْسَنَ سَوَابِحِ

يَنْشُرْنَ فِيهِ عَائِيَهُ نَشْرًا

يَقْمِصْنَ فِي مِثْلِ الْمُدَى مِنْ بَارِدٍ

يَذَرُ الْفُحُولَ وَهْنًا كَالْخَصِيبِ

يَصِفُ بِهَذَا غُبُورَ خَيْلٍ سَيْفٍ لِدُونَةٍ - فِي أَوَائِلِ أَرْبَعٍ يَغْزُونَ
أَرْضَ الْعَدُوِّ •

وفوه في صفة ريضة مهرة (الصَّخْرور) زَمَنَ الشتاءِ بِمَتَسِسْ
له كلاًّ وقد عُنَّتْ الأرضُ اشْجُوجْ :

ما نَسْرُوجِ الخَضِرِ والحَدَائِقِ
بَسْكُو خلاها كَثْرَةُ العَوَائِقِ

أَقَامَ فِيهِمُ الثَّلَجُ كالمُرَافِقِ
يَعْقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رِيقَ البَصَقِ
وهذا البيت منبىء بتجربة خاصة قوية • وما أشكُّ أن أبا العلاء
أخذ منه حينَ قال يصف بَرْدَ بغداد :

• مَاءٌ نَزَلَ لَا نَزْلُ نَوَاجِذِي
فِي مَنَظَّاهُ سَوَابِجِ كَأَوَازِهِ
حَسِبْتَهُ أَخَذَ قَوْلَهُ (سَوَابِجاً) من صفة أبي الضَّيْبِ الخَيْلِ وَهْنُ
يَسْبَحُنْ كَذَنِي مَرَّةً مِنْ قَوْلِهِ :

حَتَّى عَبَّرَنَ بِأَرْسَاسِ سَوَابِجِ
وفوه (كَأَوَازِهِ) - أَخَذَهُ مِنْ ههنا - (يَعْقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رِيقَ
البَصَقِ) •

وزدَ قَوْلَهُ مَنَظَّاهُ يُضَمَّنُ ذَلِكَ تَشْبِيهاً لِحَدِّ البَرْدِ بِحَدِّ
السَّيْفِ . وَدَمَتْ قَوْلَ أَبِي الضَّيْبِ (فِي مِثْلِ السُّدَى) •
ويعود إلى بيت أبي الضَّيْبِ :

أَقَامَ فِيهِمُ الثَّلَجُ كالمُرَافِقِ
يَعْقِدُ فَوْقَ السَّنِّ رِيقَ البَصَقِ

ثم مَضَى لَاعَادَ من مُهَارِقِ

بقائدٍ من ذَوْبِهِ وسائقٍ

والتنبيه مأخوذٌ من معنى ما هو في مَعْرِضٍ وَصْفِهِ من الرِّْيَاضَةِ
والركض أَعْنَى تشبيهه الذَّوْبَ بالقائد والسائق • ويبدو لي أنه عَنَى
بالقائد ما يتقاطر من التَّلَج حين يكون عالِقاً بالصخور أو رؤوس الدُّور
وبأسائقٍ ما يَنْشَقُّ منه من وراءٍ فَيَنْحَدِرُ له سائره •

كأَنَّمَا الطُّخْرُورُ باعِي آبقٍ يَأْكُلُ من نَبْتٍ فصيرَ لاصق
كقَشْرِكَ الحَبَرِ عن السَّهْرِقِ

المهاريق الأوراق البيض شبه بها بياض الثلج • وهذا التشبيه منزع من
صناعة أبي الطيب من الكتابة والخط والمراجعة والكشط • وقد نبه على مش
هذا من إحسانه أبو منصور في فصله البارِع الذي عَقَدَه له في يتيسر
الدهر •

وقلَّ مكانٌ مرَّ به أبو الطيب وله يُسَجِّلُ انطباعاً عن جوِّه
وضيعة أرضه • من ذلك مثلاً قوله بصف لبنان في مَعْرِض مدحه أبا على
هرون بن عبدالعزيز الأوراجي :

بيني وبينَ أبي عليٍّ مثله شَمُ الجبالِ ومِثْنِ رَجَاءِ
وعقابُ لُبْنانٍ وَكَيْفَ بَقْطَعِهُ وَهُوَ الشِّتَاءُ وَصَيْفُهُنَّ نِسَاءُ
نَبَسَ الثَّوَجُ بها عِيَّ مسالكي فكانها بياضها سُدُوداء

وتشبيه شَمِ الجبالِ بأبي عليٍّ كأنَّ فيه إحياء بتشبيهه برجل دوى
هيبة وعنائم ؛ وتشبيه الجبل بالشيخ معروف في الشعر • ومنه (وهو
كالأصل) قَوْلُ امرئ القيس :

كَأَن ثَبِيرًا في عرَائِنِ وَبَنِهِ كَبِيرُ أُنَاسٍ في بَجَادٍ مُرَمَّلِ

ومن ههنا انتزع أبو الطيب وَحْيَ صورته ذات الرجا العدد وفد
شبهه رجاءه الضخم البعيد بجبال لبنان ذات العلو يكسوه السج
الأبيض • ثم تذكر أن طريفه إلى تحقيق هذا الرجاء إنما يكون عيها •
وهنَّ عقبات :

نيس النوج بها على مسالكي
فكأنها بياضها سواداء

ومتلا قوله : يصف بادية الساء في الصيف :
نوهت الأعراب سورة مترف
تذكره البيداء ظل الشراذق

فذكرهم بالماء ساعة غبرت
سموة كلب في أنوف الحزائق
والشاهد هنا صورة الغبار وهو يصيب مع الحر أنوف الجوع
المرتحلين - وأحسبه لم يخل ههنا من النظر إلى أبي تاء في قوله :

من لم يقدر فيطير في خيشومه
رهج الخميس فلن يقود خميس

ثم انصرف أبو الطيب بعد إلى شيء من ذكر صفات الصحراء :

وكانوا يروون الملوك بأن بدوا
وأن نبت في الماء نبت الغلافق

فهاجوك أهدي في التلا من نجومه
وأبدى يوه من أدحي النقاسق

وَأَصْبَرَ عَنْ آمَوَاهِ ضَبَابِهِ

وَأَلْفَ مِنْهَا مُقْتَنَةً نُّودَائِقُ

هـ بعض هذه الصفات التي خلعها على سيف الدولة من ألفِ شدةِ
الحر وانحسر ألف السُّقْنَةِ لَوَهَجِهِ إِنَّمَا كَانَتْ صَفْنَهُ هُوَ وَإِنِّي ذَلِكَ أَشَارُ
فِي قَوْلِهِ :

ذُرَانِي رَأْفَلَاةً بِأَلَا دَلِيلِ

وَوَجْهِي وَالْهَجِيرَ بِأَلَا لثَامِ

فَأِنِّي أَسْتَرِيحُ بِذِي وَهَذَا

وَأَتَعَبُ بِالْإِنْسَاخَةِ وَاسْتِقَامِ

عَيُونُ رَوَاحِلِي إِذَا حَرَّتْ عَيْنِي

وَكُرْ بَغَامِ رَازِحَةٍ بَغَامِي

فَقَدْ أَرَدْتُ الْمِيَاهَ بِغَيْرِ هَادٍ

سَوَى عَدَدِي لَهَا بَرَقَ الْغَامِ

وَلَا أَمْنِي لِأَهْلِ الْبُخْلِ ضَيْفًا

وَلَيْسَ قَرِيٌّ سِوَى مَخِ النَّعَامِ

وقد كن النعامُ على ذلك الزمانِ كثيراً في فلكواتِ بلادِ العربِ الى
مِصْرَ فَيُوثِنُ الْآنَ أَنْ يَكُونُ قَسْدَ انْحَاظَ كَشَهُ إِلَى نَعْسَاقِ بِلَادِ
الْمِنْطَقَةِ الْحَدَثَةِ ذَاتِ الْمَطَرِ - وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُهُ فِي سِيعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ
كَثِيرًا .

من ذلك قَوْلُهُ وَقَدْ نَوَسَطَ أَرْضَ الْعَرَبِ فِي فِرَارِهِ مِنْ كَافُورٍ
إِلَى الْكُوفَةِ :

بُسَيْطَةً مَهَلًا سَقَيْتَ الْقِطَارَا
تَرَكْتَ عُيُونَ عَبِيدِي حَيَارَى

فَطَنُّوا نَعَامَ عَلَيْكَ النَّخِيلَ
وَضَنُّوا الصَّوَارَ عَيْبَ السَّنَارَا

فَأَمْسَتْ سَحَابِي بِكُوَارِهِمْ
وَقَدْ قَصَدَ الضَّحْبُ فِيهِمْ وَجَارَا

وقد أعدت الانتدرة لى هذا الحادث الصغير لذي أضحكته هو واصحابه
في وسط أحاملة المهالك بهم . في مقصودته (الاكل : ماشية الخيزلى)
فقال :

وَقَدْ لَهَا يَنْ أَرْضُ الْعَرَا فَقُلْتُ وَنَحْنُ بِثَرِيدِهَا
رَوَامِي الْكَفَافِ وَكِبْدُ التَّوْهَادِ وَجَرَّ الْبَوِيرَةِ وَادِي الْغُضَى
وَجَابَتْ بِسَيْطَةِ جَوْبِ الرِّدَاءِ بَيْنَ النَّعَامِ وَبَيْنَ الْمَهْ

وذكر النعام والمها هنا أشعر من ذكره في الايتين الرائية التي
تقدمت لما فيه من صورة تنطق لصحراء قسسين . فيه حيواتها منجفات .
النعام من ههنا . وانها من ههنا •

وسرد المواضع أسوب قديم " الا أن أبا الطيب طاب له وحرص
على إيصالنا من بيته مصر الى أرض العراف موضحاً موصلاً ،
وأحسب أن مداح الرسول صلى الله عليه وسلم حين جعلوا
من طريقهم ذكر مراحله الطربق حتى يبتغوا حرمة السريفة
والحرمة المكي . فتدوه هو أولاً مع علبهم بدون شك

بِسُذْهِرِ التَّقْدِمَاءِ . إِذْ فَلَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ فَرَّ السُّعْمَانِ وَعَرَفَ
مِنْهَا أَمْثَالُ :

فَرِيَاضُ الْقَطَا فَأَوْدِيَّةُ الشَّرْبِ فَلشُعْبَتَانِ فَأَلْيَاءُ
وَفِي هَزِيَّةِ الْبُوصِيرِي مَرْدٌ حَسَنٌ لِلْمَوَاضِعِ بَيْنَ مِصْرَ وَالْحَرَمَيْنِ
فَقَالَ فِي آخِرِهِ :

هَذِهِ عِدَّةُ الْمَنَازِلِ لَا مَا عَدَّ فِيهِ السَّمَاءُ وَالْعَوَاءُ
فَكَأَنِّي بِهَا أَرْحَلُ مِنْ مَكَّةَ شَمْسًا سَمَاؤُهَا الْبِيدَاءُ
وَقَدْ انْتَقَلْتُ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ مِنْ مَدْحِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي
التَّفْصِيحِ إِلَى مَدْحِهِ فِي اللِّسَانِ الْعَامِيِّ ، وَافْتَنَّ فِي ذَلِكَ شِعْرَاؤُهُ أَيْسَا
افْتَتَانٍ وَهَذَا بَابُ تَفْصِيلِهِ يَطُولُ وَهُوَ بِعَدِّ خَارِجٌ عَمَّا نَحْنُ بِصَدَدِهِ
الْأَقْلِيَاءُ .

هَذَا . وَالْقَصِيدَةُ الْمَقْصُورَةُ الَّتِي اسْتَشْهَدْنَا بِأَيَّاتٍ مِنْهَا هَهُنَا عَدَّةٌ
فِيهَا أَبُو الطَّيِّبِ نَحْوًا مِنْ عَشْرِينَ مَوْضِعًا . وَصَوَّرَ فِيهَا حَرَكَةَ انْتِقَالِهِ فِي
الصَّحْرَاءِ مَمَزُوجًا ذَلِكَ بِمَا كَانَ يَسَاوِرُ نَفْسَهُ مِنْ قَلَقٍ وَغَضَبٍ
وَرُوحٍ تَحَدٍّ .

وَافْتَنَّ فَجَعَلَ مَطْلِعَ الصَّبَاحِ مَوْذِنًا بِدُنُوِّ نَهَايَةِ فِرَارِهِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ :
وَلَا حَ لَهَا صَوْرٌ وَالصَّبَاحُ وَلَا حَ الشَّغُورُ لَهَا وَالضُّحَى
وَصَوْرٌ وَالشَّغُورُ مَوْضِعَانِ بِالْعِرَاقِ . وَإِذْ بَلَغَهُمَا وَهَبٌ مِنْ مَعَالِمِ
النَّجَاةِ وَاقْتِرَابُ الْمَأْمَنِ . التَّفَتُّ إِلَى مَا كَانَ قَدْ تَجَسَّسَهُ مِنْ يَلِّ الْجَدِّ
وَالْخَوْفِ قَبْلَهُمَا .

فيا لك لَيْلًا على أعْكَسِ أَحْمَ البلادِ خَفَى الصَّوَى
ورَدَّتْ الرُّهَيْمَةَ في جَوْزِهِ وبقِيهِ أَكْثَرُ مِمَّا مَضَى
ليست صفة الليل هنا مَذْهَبَ تَقْلِيدِ شِعْرِي وَلَكِنَّهَا نَجْرٌ بِهِ
تُحَسِّسُ صِدْقَ إِحْسَاسِهَا ذِي الطَّابِعِ التَّفَرُّدِيَّ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَلَكِنَّا
لَا نَقْبِلُ عَلَيْهِ بِالتَّأَمُّلِ النَّاقدِ العميقِ الإعْجَابَ لِمَا تَعَوَّدَناه مِنْ عَدَمِ
الإِقْبَالِ عَلَى أَوْصَافِ اللَّيْلِ وَالشُّجُومِ وَالْقَمَرِ مِمَّا يَقَعُ كَثِيرًا بِلا طابِعِ
مُشَاهَدَةٍ أَصِيَّةِ التَّجَرُّبَةِ عِنْدَ أَصْنَافِ الشُّعْرَاءِ * تَأَمَّلْ قَوْلَهُ :
وَأَسْرَى فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ وَحَدِي كَأَنِّي مِنْهُ فِي فَرْسٍ مُنِيرٍ
وقوله :

كَأَنَّ بَنَاتِ نَعْسٍ فِي دُجَاهَا
خَرَّائِدٌ سَافِرَاتٌ فِي حَدَادِ
وقوله :

مَا بَالُ هَذِي الشُّجُومِ حَائِرَةٌ
كَأَنَّهَا الْعُصَى مَالَهَا قَائِدٌ
وقوله :

كَالْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ التَّفَتُّ رَأَيْتَهُ
يُهْدِي إِلَى عَيْنَيْكَ نُورًا ثَاقِبًا
كَالشَّمْسِ فِي كِبَرِ السَّمَاءِ وَضَوْوُهَا
يَغْشَى الْبِلَادَ مُسَارِقًا وَمَغَارِبًا
وقوله :

كَأَنَّهَا فِي نَهَارِهَا قَمَرٌ
حَفَّ بِهِ مِنْ جَانِبِهَا ظِلٌّ

هذا ، في شعر أبي الطيب انطباعات "قوية دقيقة" مختصرة" عن البلاد التي شاهدها كالذي مرَّ من صفة غبار سماوة ككتب وجبل لبنان وثلج الشاء وصلح رؤس جباله وكقوله يذكّر ظهور الربيع عند عيد النيروز في بلاد الفرس .

ما لبس فيه الأكاليل حتى جسدته نباله ونجاده
وكقوله في النيل :

وسكت به البيداء حتى تغسرت

من النيل واستدرت بفس السقط

وفي قوله (تغسرت) اشعار بكثرة ماء النيل وجسامته وفي قوله (استدرت بفس السقط) اشعار بخصب مصر وخفض العيس الذي لقيه فيها وقد صرح بذكر هذا الخفض ، ورجعه سبب سقته في القصيدة الميسرة الرائعة التي وصف فيها الحمى فقال :

وزائرني كأن بها حياء فليس تزور إلا في الظلام
بذلت بامطارف والحنايا فعافتها وباتت في عظامي
يضيق حبه عن نفسي عنها فوسعه بآلوع السقاء
إذا ما دارفتني غسلتني كأن عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجري مدامعها بأربعة سجام
أراقب وفك من غير شوق مراقبة منسوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر إذا ألك في الكرب العظام

وهذا تلمس دقيق ، وليس وصف الحمى بأبعد ، في باب الطبيعة عن وصف الأسد والنعام ولا سيئا ونحن الآن نعلم أن سببها حيوان

صَغِيرٌ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ ، وَإِنَّمَا تَحِسُ نَفُوسُ أَثَرِهِ . فَهَذَا هُوَ الَّذِي
ذَكَرَهُ أَبُو الطَّيِّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَمَنْ جَيِّدٌ مَا يَجِيءُ بِهِ أَبُو الطَّيِّبِ مُخْتَصِرًا
لِمَلاحِظَاتِهِ وَانطباعاتِ تجاربِ الطَّيِّبَةِ فِي نَفْسِهِ مَا يَقَعُ فِي بَابِ النِّسَبِ
وَبَعْضِ أَغْرَاضِهِ الْأَخْرِيَّاتِ مِنْ صِفَاتِ لَحْيَا وَذَكَرِ نِسَائِهِ .
مِثْلُ قَوْلِهِ :

رَعَى اللَّهُ عَيْسَا فَرَقْتَنَا وَفَوَّقَهَا
مَهَا كَلَّهَا يُؤَلَّى بِجَفْنَيْهِ خَدُّهُ
بَوَادٍ بِهِ مَا بِالْقَلْبِ كَأَنَّهُ
وَقَدْ رَحَلُوا جِيدٌ تَذَنُّرُ عِقْدُهُ
إِذَا سَارَتْ الْأَحْدَاجُ فَوْقَ بَنِيهِ
نَتَاوَحَ مِسْمُ الْغَانِيَّاتِ وَرَأَدُهُ
وَالنَّهْدُ هُنَا هَذَا الْأَرْجُ الْعُطْرُ الْمُتَوَحُّ مِنَ الرَّئِيسِ وَنُخَالِطُ
نَسِيهِ الرَّقِيقِ عُظُورُ الْغَانِيَّاتِ وَكَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ هُنَا لَمْ يَحْدُثْ مِنْ أَخْذٍ
مِنْ عُلُقَةٍ حَيْثُ قَالَ . مِنْ مِيسَتِهِ الْفَرِيدَةِ :

يَحْمِلُنَ أَتْرُجَةً نَضَخَ الْعَبِيرُ بِهَا
كَأَنَّ تَطْيَابَ فِي الْأَنْفِ مَسْهُومٌ

وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :-

قَدِّينَاكَ مِنْ رُبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كُرْبًا
فَأَنَّكَ كُنْتَ لَشَرْقٍ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبِ
وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَسْمَهُ مِنْ لَمْ يَدْعَ نَا
فَوَادًا لِعَرَفَازِ الرِّسْمِ وَلَا تَبَّ

جعل أبو الطيب ههنا رُبْعَهُ رَمَزًا للكون كُلِّهِ وللضبيعة كُلِّها ومحبوبته
حيث كنت مقيمة به تطلع وتغيب :

نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمْشِي كَرَامَةً
لِسَنِّ بَانَ عَنْهُ إِنْ نَمِمْ بِهِ رُكْبَ
والمعروف عند الربوع الوقوف والاستيقاف كقول امرئ القيس :
فَمَا نَبَّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ
وقوله :

وقوفاً بها صَحْبِي عَلَى مَضِيهِمْ

وقول أبي الطيب (نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمْشِي) فيه إفصاحٌ بتجربةٍ
فردية سوى التواضع عليه في نعت الأطلال .

وَنَحْنُ لَا نَسْلُكُ بَعْدَ الْآنَ نَتَرَجَّلُ مَعَ التَّسَاعُرِ وَنَسْنِي وَحَوْلَنَا
كَوْنُ الطَّبِيعَةِ وَالذِّكْرَى الْعَرِضَةُ وَلَا يَخْلُو مِثْلُ هَذَا السَّنَى مَعَ مَا
يُصَاحِبُهُ مِنْ تَأْمَلٍ حَزِينٍ وَادِّكَارٍ مِنْ تَوْعٍ نَشْوَةٍ وَارِنِيَّاحٍ فَوَادٍ
وَوَاقِعَةٍ حَيَّةٍ .

واحسبُ أَنْ مَنْشَأَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ مِنْ كَوْنِ أَبِي الطَّيِّبِ قَدْ كَانَ مَعَهُ
صَحْبٌ يَشَارُ كَوْنَهُ النَّزْوَنَ وَالْمَشْيَ . لَا وَافِقِينَ عَلَيْهِ مَضِيَّهُمْ كَمَا عِنْدَ
امْرَأَةِ الْقَيْسِ وَطَرْفَةٍ . وَلَا مُسْتَوْقِفَهُمْ هُؤُلَا أَوْ دَاعِبَهُمْ إِلَى أَنْ يَعُوجُوا
وَيَعْرِجُوا كَمَا هُوَ الْمَذْهَبُ فِي النَّسِيبِ .

وَمَصْدَرُ النِّشْوَةِ وَالْارِنِيَّاحِ هَذَا الْغَيْثُ الَّذِي حَسَّنَ مَنَظَرَ الْأَرْضِ
وَطَابَ نَسِيمُهَا مِنْ بَعْدِهِ عَلَى مَا أَوْفَعَهُ بِمَكَانِ الرَّبْعِ مِنْ تَعْبِيَةِ مَعَالِمِ
وَمَحْوِ آثَارِ :

يَذُمُّ السَّحَابَ انْتَفَرَّ فِي فَعْلَهَا بِهِ
وَنَعَرَضُ عَنْهُ كَمَا طَعَتْ عِبَاءُ

قوله انْتَفَرَّ فِيهِ فَرَحَةٌ بِالسَّحَابِ وَحُبٌّ لَهُ •
وَلَا غَرَوْ فَبِالْبَادِيَةِ نَسَاءً وَكُحْبً أَهْلَهَا الْغُيُوثُ وَبُرُوفُهَا أَحْبَهُ •
وَهُوَ الْقَائِلُ :

فَقَدْ أَرَدَ أَمِيَاهَ بَغِيرَ هَادٍ سَوَى عَدَّيْ لَهَا بَرَقَ الْغَسَادِ
وَهُوَ هُنَا يُخَاطَبُ السَّحَابَ مُخَاطَبَةَ الصَّدِيقِ الَّذِي نَهَ بُوْدَهُ
الْعَبْدُ الطَّوِيلُ يَذُمُّهُ لِلَّذِي فَعَلَ بِالرَّبْعِ وَيَعَاتِبُهُ وَيَعْرِضُ عَنْهُ وَهُوَ
- أَيِ السَّحَابِ - عَلَيْهِ مُقْبِلٌ "بَلَمَعَهُ الْحَرُّ الْأَغْرَ الْجَبِيلُ" •
وَهُنَّ تَتَكَثَّرُ هُوَ لِلْسَّحَابِ بَعْدَ هَذَا الْوَدِّ كَمَا هُوَ نَسَاءً رَفَقَاءُ
هَذِهِ الدُّنْيَا فِي التَّنَكُّرِ ؟

وَمِنْ صَحْبِ الدُّنْيَا ضَوِيلًا تَقَلَّبَتْ
عَلَى عَيْنِهِ حَتَّى يَرَى صِدْفَهَا كَذِبًا
ثُمَّ يَأْخُذُ أَبُو الطَّيِّبِ فِي الْمَرْجِ بَيْنَ حَاضِرِ ارْتِيَا حِهِ لِلرَّبْعِ وَالْأَصِيلِ
وَالضُّحَى وَالنَّسِيمِ وَغَابِرِ مَا كُنْ ، مِنْ عَهْدٍ مُودَّةٍ الْحَبِيبِ وَمَا يُثِيرُهُ
ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ مِنْ ضَرْبٍ • وَمَا نَعُوْدُ بِهِ خِفَّةً ذَلِكَ الطَّرْبُ (وَقَدْ
أَخَذَتْ الْآنَ تَتَقَدَّمُ بِهِ السَّنُّ) إِلَى سَالِفِ عَصْرِ صَبَاهِ أَيَّامَ كَانَ
غُلَامًا يَتَوَتَّبُ وَيَتَّبُ وَشَبَابًا يَتَقَدَّمُ إِفْدَامَ الْآتِي • أَيِ السَّيِّئِ أَوْ
كَمَا قَالَ :

وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْآتِي كَأَنَّهُ لِي
سَوَى مِنْهَجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَرَثَرُ

وهذا كما ترى من أجود ما يقال من صفة حساسه أنساب ودكر
السيل فيه ما قدّمنا ذكره من صفة الطبيعة ضمن النسب .

وكيف انداذى بالأصائل والضحى

إذا لم يعد ذلك النسب الذي هب

ذكرت به وحلاً كأن لم أفز به

وعيشاً كأنى كنت أفضعه ونب

البيت الاول فيه إعلامنا انه التذنبوب النسب وأسنه وضحه

والبيت الثاني فيه الصورة التي زعمنا انه تنزعها من تذكر به صبه .

وفتانة العينين فتالة الهوى

إذا تفتحت شيخاً روائحها شبا

له بتكر الدبر الذي قلدت به

ولم أر بدمراً قبلها من الشهب

وكان عهد أبي الطيب بهذه الفتانة غير بعيد . وكان قوله اد مدح شيخ

روائحها شبا - وهذا شبيه بقوله :

تقاوح مسك الغايات ورنده

وقوله :-

ولم أر بدمراً قبلها قلد الشهب

فيه معنى ما ذكرناه من قوة احساسه بضوء البدر وتلق النجوم
وانعكاس روح هذا المعنى في تعبيره - وصورة الحسناء ههنا لا يخفى
أنها ذات اللق وهجاج اتزعه الشاعر من ضوء الشمس والبدر والدرارى
والشهب .

وَأَمَلْ فَوْه :

وَمَنْ يَصْحَبِ اسْمَ ابْنِ عَبْدِ مُحْسَدٍ
يَسِرُّ بَيْنَ أَنْيَابِ الْأَسْوَدِ وَالْأُسْدِ

بَسْرُهُ مِنْ نَسَمٍ الْوَحْيِ يَعَاجِزُ
وَبَعْبُرٍ مِنْ أَفْوَاهِهِنَّ عَلَى دُرْدِ

كَفْنَا تَرْبِيعُ الْعَيْسِ مِنْ بَرَكَاتِهِ
فَجَاءَتْهُ لَمْ تَسْمَعْ حَدَاءً سِوَى الرُّعْدِ

اد. م. سَنَحِينِ الْمَاءِ يَعْزِضُ نَفْسَهُ
كَرْعَنْ بِسَبْتٍ فِي انَاءٍ مِنْ انُورِدِ

وهو ينسجده بأن سفره كان نهاراً في ظل الغمام وصوت الرعد البعيد
غير المرعب لبعده . كأننا هو حاد يسوق ابله . وقد نسيبت لاعتساف
الهواء ولعنفيه وشمول النعمة والرخاء . حتى انهن قد داخلتهن الحياء
ما رأين كثر الماء . ووجدن أنفسهن مترفات قد رقت شفاههن حتى
صرن كالسبت وهو جدد الماعز الرقيق المدبوغ وجعلن يكرعن
بها من غدرن حشف بهن الزهر . كأنهن يكرعن من نية فضة
تزين حواسيها اورود .

كَأَنَّ ارْدَاتٍ شُكِّرْنَا أَرْضُ عِنْدَهُ
فَلَمْ يُخْلِنَا جَوْهُ هَبْطُنَاهُ مِنْ رِقْدِ

وعنى : الرقيد هذا انجسال والارج الحسن . وشك كثر الارض
نفتحتها بالخضرة والنشوار - كما قال ابن الرومي :-

شَكَرْتُ نِعْمَةَ الْوَلِيِّ عَلَى الْوَسِيِّ

ثُمَّ الْعَهْدَ بَعْدَ الْعَهْدِ

وَفَدَ نَعِمَ أَنْ أَبَا الطَّيِّبِ كَانَ مِنْ رِوَاةٍ شِعْرِهِ وَمَا خَلَا هَهُنَا مِنْ إِسَارَةٍ
خَفِيَّةٍ إِلَى مَا قَدْ قَالَ •

لَنَا مَذْهَبُ الْعُبَادِ فِي تَرْكِ غَيْرِهِ

وَأَنْيَانِهِ نَبْغِي الرِّغَائِبَ بِالرَّهْدِ

رَجَوْنَا الَّذِي يَرْجُونَ فِي كُلِّ جَنَّةٍ

بَأَرْجَانِ حَتَّى مَا يُسْنَا مِنَ الْخُنْدِ

تَعَرَّضُ لِلزَّوَارِ أَعْنَاقُ خَيْلِهِ

تَعَرَّضُ وَحَشٍ خَائِفَاتٍ مِنَ الضَّرْدِ

وَتَلَقَّى نَوَاصِيهَا التَّمَانِيَا مَشِيحَةً

وُزُودَ قَطًّا صُمٌّ تَشَايَحْنَ فِي وَرْدِ

قَالُوا جَعَلَ الْقَطَا صُمًّا لَاهْتِسَامِهَا بِالطَّيْرَانِ وَانْشَغَالِهَا بِهِ عَنْ كَثْرَةِ شَيْءٍ

سِوَاهُ وَمِنْ تَأَمَّلِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ الدَّالِيَّةَ مَا صَرَخَ فِيهِ أَبُو الطَّيِّبِ مِنْهَا

بِذِكْرِ الطَّبِيعَةِ مِنْ رَيْعٍ وَغَيْثٍ وَزَهْرٍ وَمَا لَمْ يُصَرِّحْ وَلَكِنْ جَاءَ

بِهِ فِي مِعْرَاضِ الْمَدْحِ يَجِدُ أَنَّه ضَمَّنَهَا تَجَرُّبَةً سَقَّرَهُ إِلَى ابْنِ الْعَمِيدِ

كُلُّهَا - صَوَّتَ الْأَسْوَدَ . وَدَبَّيْبَ الْحَيَّاتِ . وَصُورَ الْوَحْشِ

الْناَفِرَاتِ وَضُرُوبَ الثَّقَطِ وَالطَّيْرِ الْوَارِدَاتِ الْمِيَاهِ ••• ثُمَّ ثَقُورَ نَفْسِهِ

هُوَ شَيْئًا مِنْ ابْنِ الْعَمِيدِ • وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ ابْنَ الْعَمِيدِ عَابَ عَلَيْهِ عَصِيدَتَهُ

الرَّائِيَةَ •

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا

فإن صحَّ هذا فهوَ لا ريب من أسباب النفور • وقد كان ابنُ العميد
من أكابر الكتب في زمانه - ولا يخلو مذهبه من كثرةٍ وظلٍّ ثقیلٍ
أشبه شيء مع بعد القياس بسوجة الشعر الحديث التي نجتأحنا الان •
هذا واحسب أن أبا العلاء قد أخذ من أبي الطيب الدالية هذه
في وصفه سقّره الى العراق حيث قال :-

وبتة بمُستَنِّ اليراييم راقداً
يُطَوِّقَنَ حَوْلِي من فرادى ومن شتَم
فهذا كأنه مؤلّد من قول أبي الطيب يسير بين أنياب الأساودِ
والأسد • وحيث ذكر الابل فقال :-

لقد زارني طَيْفٌ ! خيالٍ فهاجني
فهل زار هذِي الإبلَ طَيْفٌ خيال

لعل كراهها قد أراها جذابها
ذوائبٌ صلحٌ بالعقيق وضائن
فهذا كأنه تفرّيعٌ من قول أبي الطيب « استَحَيْنَ الماء يعرض نفسه »
وقوله « كَرَعَنَ سَبَبْتٍ في إناءٍ من الورد » • وما يُصَحِّح ما نزعاه
هنا ويؤكّده قولُ أبي العلاء :

وأعجبها جذبُ العضاهِ أنوفها
بشئٍ إبار حُدِّدَتْ ونِصَال
فجعل الانف مكانَ المشافر وجعل العضاهَ وشوكها مكانَ الورد
وفي الورد شوكٌ إلا انه رقيقٌ لطيفٌ غيرٌ بدويٍّ خشنٍ كشوكِ
السيال والطلح وهلم جرا •

ومما يدخل في باب الطبيعة . وان بدا كأنه غير داخل فيها . ما كان
أبو الطيب بجيء به في شعره من صَوَرِ الحركة والمنظر التي تبدو
معها - مثل قوله :-

وتُضْحِي الحُصُونُ المُشَخَّرَاتُ في الذُرَا
وَحَيْلُك في أغصانهن فَلَائِدُ
فهذا منظر ذو حركة متبس فيه الإنسان وعَسنه بطبيعة كس
التباس . ونحو منه قوله الذي مرَّ آنفا :

حتى عَبْرَانُ بأرْسَدِ سَوَابِحِ
يَنْسَرْنَ فِيهِ عِشَائِمُ الثَّرَمَانِ

فكأنهن سَفْنٌ لهنَّ غُوعٌ كما نرى .

وقوله :

كس رَحِبَتْ بنا الرِّوَضُ قُلُنْ
حَبٌّ قَصْدُنْ وَأَنْتِ أَنْسِيں

فقوله رَحِبَتْ مُنْجِيءٌ بِحَرَكَتِهِ مَا فِيهِ مِنْ قُدُومٍ وَنَحِيْبٌ . ثُمَّ فِيهِ
مَعْنَى انْسَاعِ الرِّوَضِ وَبَهْجَتِهِ وَانْتِضَاعِ ذَلِكَ فِي قُوَادِرِ انْسَاعٍ مَعَ مُرَاعَةٍ
تَجَاوَزَهُ لَهُ :

وقوله :-

فَلَمَّا تَجَلَّى مِنْ دَلُولٍ وَصَنَجَةٍ
عَت كُئِلٌ ضَوْدٍ رَايَةٍ وَرَعِيلِ

ولت ان تخيل هَوَلَ هَذَا السَّنْظَرِ وَكَرَوَعَتِهِ .

على طُرُقٍ فيها على الطُّرُقِ رَفْعَةً
وفي ذِكْرِهِ عِنْدَ لَا نَيْسٍ خُسُولِ
ورُعْنِ بِنَا فَلَئِنْ التُّرَاتِ كَأَنَّمَا
تَخْرِقُهُ عِيَهُ بِالرَّجُلِ سَيُولِ
بُظُرْدُ فِيهِ مَرَجَةٌ كُلُّ سَابِحِ
سَوَاءٌ عِيَهُ غَرَّةٌ وَمَسِيرِ
نَرَاهُ كَأَنَّهُ أَمَاءٌ مَرَّةً بِجَسَدِهِ
وَأَقْبَلَ رَأْسُ وَحَدَّهِ وَمِيلِ
منظر الجبال على رؤوسهن أراياتُ والخيولُ مكدَّةُ الأفقرِ • ته صورة
الخيول والنُرسانِ المندفعةِ الى نُهْرٍ التُّرَاتِ أَمْثَالِ السُّيُولِ •
والتشبيهُ نَفْسُهُ يَتَضَمَّنُ تَجَرُّبَةً مِنَ الشَّاعِرِ لِمَنْظَرِ السُّيُولِ وَهِيَ تَخْرِقُهُ
فِي نَهْرٍ كَبِيرٍ ثُمَّ بَعْدَ دِفَاعٍ أَوَّلِ مَنْفَاهِ بِهِ سَتَرَجٌ أَمْوَاهِهِ وَنِيَّارُهُ
بِأَمْوَاهِهِ وَنَارِهِ وَمِثْلُهُنْ هَوْلَاءِ النُّرْسَانِ وَخِيَالُهُنْ مَنْفَعِينَ حَتَّى إِذَا
صَارُوا إِلَى أَمَاءٍ تَفَرَّقُوا فِيهِ بَدَافِعُونَ مُوَاجِهَةً وَتَدَافِعُهُمْ • وَذَلِكَ غَلَبَ
اتساعِ النُّهْرِ عَلَى مَنْظَرِ قُوَّةِ انحدارِهِ الْعُظِيمَةِ مِنْ قَبْلِ • بِهِ صَارُوا
مِنْ النُّهْرِ جُزْءًا خِيُولُهُمْ فِيهِ سَابِحَاتٌ • كَأَنَّ أَجْسَادَهُنْ قَدْ اقْتَضَعَهُنَّ أَمَاءٌ فَذَهَبَ
بِهَا وَلَهُ يَبْقَى مِنْ كُلِّ فَرَسٍ إِلَّا رَأْسَهُ وَغَنَقَهُ ضَافِيًا بِسَا عَلَى
الْمَوْجِ كَأَنَّهُ مِنْ أَفْرَاسِ الْبَحْرِ الَّتِي كُنْتُ حَتَّى زَمَانٍ قَرِيبٍ نَرَى
صُورَهُنْ مُتَفَرِّقَاتٍ هَكَذَا عَلَى عَرَاصِ السَّيْلِ • هَذِهِ لُصُورَةٌ نَادِرَةٌ "مذهلة"
ذات انطباعٍ نَفْسِيٍّ دَقِيقٍ •
وقد قال ابن الأثير في باب موازنته بين أبي الطَّيِّبِ والطَّائِيينِ :-

ولا شئ أنه كان يَشْهَدُ الحروب مع سيف الدولة بن حِسان
 فيَصِفُ لسانه ما أدى إليه عيانه ، وليته قال : وجناته فان رؤيته
 القَتْبِ أعم وادق من رؤْيَةِ البَصَرِ ولذلك قال تعالى . جل من فاض :
 « فَإِنَّهَا لَا نَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » وقال
 سبحانه وتعالى : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِّسَنٍ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ
 وهو شهيد » •

وقد كان أبو الطيب رحمه الله مع رؤْيِهِ بصره بصيرة - وله تكن
 الجيوش في زمانه تحارب من وراء جدار الا عند الحصار • وكان ولع ابي
 الطيب ينعت حركتها عظيما وما أَحْسِبُ مصدرَ ذلك الا أنه كان
 يحب الهواء الطَّلَقَ مع حركة المجال الرحيب ... فالذي رأيت من صورة
 الخيلِ قلائِدَ حَوَّلَ ذُرًّا الحِصُونِ ومن صورهنَّ وهنَّ يَثْنَيْنِ كلَّ
 طَوْدٍ كأنهنَّ رياحٌ حَقَقْنَ بغصنٍ رَطْبٍ وإذْ هُنَّ
 يَعْبُرْنَ أَرْسَناسَ وَيَنْشُرْنَ فِيهِ الْعِمَائِمَ وإذْ هُنَّ يَعْطُونَ الهَضَابَ
 وَعَلَيْنَ الرِّايَاتِ واذْ هُنَّ فِي الْفِرَاتِ كُلِّ مِنْهِنَّ مَقْبَلٌ

« رَأْسٌ وَحَدَهُ وَتَكْلِيلٌ » •

كل هذه صُورٌ من الطبيعة الطلقة امتزجت به حركة الشاعر
 والمشاهد الرائعة التي ملكت عليه فتأاده وبصره

نأمل فوله يَصِفُ جيوش سيف الدولة وخيله :

تَبَارَى نَجُومُ الْقَذْفِ فِي كُلِّ لَبْلَلَةٍ

نجوم له مِنْهُنَّ ورد وأدهم

يَطَّأَنَّ مِنَ الْأَظْطَالِ مَنْ لَا حَسَنَتَهُ

وَمَنْ قِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ

هذه الصورة الفظيعة مَنَظَرٌ بقاء معركة * ولعمري ان امثالها لنراها
مُصَوَّرَةً في رسم لفنانين الاوربيين فَنَعَجَبُ بها وما هي نَوْءٌ قد تَقَرَّرَ سَنَا
الا لان الاصل الذي اخذ منه اسلامي ينظر الى نحو هذا الذي استشهدنا به
مُسَوَّنٌ عِيَهُم اَعْيَاهُ جَعَلَهُم رَمَزَا لِعَسْكَرِ نَابِلْيُونِ وَمَا ارَى أَنَّهُ صَنَعَ ذَلِكَ
الا بَضْعَتِ رَدَّتْ إِلَيْنَا مِثْلًا لِلْفَنَانِ الْإِسْبَانِيِّ غُثْيَةً صُورَةً فَرَسَانَهَا مَغَارِبَةً
مَنْ فَوَّاهُ أَبِي الطَّيِّبِ وَنَحْوُ قَوْلِ عُلُقَمَةَ فِي الزَّمَانِ الْقَدِيمِ :-

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقَبُ السَّمَاءِ فَدَاحِضٌ

بَشِكَتَهُ لَمْ يُسْتَسْبِ وَسَلِيبٌ

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ

صَوَاعِقُهَا لَطِيرُهُنَّ دِيبٌ

فَهْ يَنْجُ إِلَّا شَطْبَةً بِجَامِهَا

وَالَا طِمِيرٌ كَالْقَنَاقَةِ نَجِيبٌ

وَالَا كَمِيٌّ ذُو حِفَاطٍ كَأَنَّهُ

بِأَبْنَاءٍ مِنْ حَدِّ الظُّبَاتِ خَضِبٌ

هذا ونعود الى ابيات ابي الطيب :-

يَطَّأَنَّ مِنَ الْأَظْطَالِ مَنْ لَا حَسَنَتَهُ

وَمَنْ قِصْدِ الْمُرَّانِ مَا لَا يَقُومُ

فَهْنٌ مَعَ اسِيدَانِ فِي الْبَرِّ غُسْلٌ

وَهْنٌ مَعَ النَّيْنَانِ فِي الْمَاءِ غُثْمٌ

يَطَّانَ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا حَسَنَتَهُ

وَمَنْ قَصَدَ الْمُرَّانَ مَا لَا يَقُومُ

هذه الصورة الفظيعة مَنْظَرٌ بَقَايَا مَعْرَكَةٍ ، وَلَعَسَى أَنْ أَمْثَلَهَا لِنَرَاهَا
مُصَوِّرَةً فِي رَسْمِ الْفَنَانِينَ الْأَوْرَبِيِّينَ فَتَعَجَّبُ بِهَا وَمَا هِيَ لَوْ قَدْ تَقَرَّرْنَا
الْأَنْ الْأَصْلَ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُ إِسْلَامِيٌّ يَنْظُرُ إِلَى نَحْوِ هَذَا الَّذِي اسْتَشْهَدْنَا بِهِ
مُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ أَعْيَانُهُمْ جَعَلَهُمْ رَمَزًا لِعَسْكَرِ نَابِلْيُونِ وَمَا أَرَى أَنَّهُ صَنَعَ ذَلِكَ
إِلَّا بِضَاعَتَنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا مِثْلًا لِلْفَنَانِ الْإِسْبَانِيِّ غَوِيَّةَ صُورَةٍ فَرَسَانَهَا مَغَارِبَةٌ
مَنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ وَنَحْوِ قَوْلِ عُلُقَمَةَ فِي الزَّمَانِ الْقَدِيمِ :-

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقْبُ السَّمَاءِ فَدَاحِضٌ

بَشِكَتَهُ لَمْ يُسْتَلَبْ وَسَلِيبٌ

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ

صَوَّاعِقُهَا لَطِيرُهُنَّ دِيبٌ

فَمَنْ يَنْجُ إِلَّا شَطْبَةً بِجَامِهَا

وَالَا طِمِيرٌ كَالْقَنَاقَةِ نَجِيبٌ

وَالَا كَمِيٌّ ذُو حِفَاطٍ كَأَنَّه

بِأُوبُلٍ مِنْ حَدِّ الظُّبُاتِ خَضِبٌ

هَذَا وَنَعُودُ إِلَى آيَاتِ أَبِي الطَّيِّبِ :-

يَطَّانَ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا حَسَنَتَهُ

وَمَنْ قَصَدَ الْمُرَّانَ مَا لَا يَقُومُ

فَهْنٌ مَعَ اسِيدَانٍ فِي الْبَرِّ غُسْلٌ

وَهْنٌ مَعَ النَّيَّانِ فِي الْمَاءِ غُثْمٌ

وَهُنَّ مَعَ الْغَزْلَانِ فِي الْوَادِ كَمَنَّ

وَهْن مَعَ الْعِفْبَانِ فِي النَّيْقِ حَوَّ

وقد يخيل للسَّراءِ أول وهلة أن هذا مَجْجِيءٌ به على مذهب أَمْبَانَعِ وَلِلَّهِ
در این الاثیر اذ فَطَنَ الى أَنه ما كان الا وَصْفًا عن مَسَاهِدٍ مِنْ
قلب بصير •

وَبَابُ الْحُرُوبِ فِي شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ كَبِيرٌ . رَبِّسَ خَرَجَ بِهِ سِدٌّ نَحْنُ
بَصْدَدَهُ . فَلَمَّعَ إِلَى مَا وَقَعَ فِيهِ مَثَابِسُ لِلطَّبِيعَةِ إِمَاعًا مَكْتَفِينَ بِتَمِّ النَّصْرِ الَّذِي
مَرَّ وَمَشِيرِينَ إِلَى أَمْثَالِهِ مَا وَصَفَ أَبُو الطَّيِّبِ رُكُوبَ الْقُدْسِ . كَلَامَاتُ
الَّتِي اسْتَشْهَدْنَا بِهَا مِنْ عُبُورِ أَرَسِنَسَ وَالْفَرَاتِ وَكَقَوْلِهِ •

تَلَقَّى بِهِمْ زَبَدَ الْتِيَارِ مُقَرَّبَةً

عَلَى جَحَافِلِهَا مِنْ نَضْحِهِ رَنِي

وَلَيْسَتْ الْمُقَرَّبَةُ هَهُنَا بِخَيْلٍ وَأَنَا هِيَ سَفْنٌ . وَاسْتَعَارَ لَهَا جَحَافِلُ نِي
شِفَاهَا كَمَا لَخِيْلٍ شِفَاهُ . وَالرَّثَمُ بِيَاضٍ فِي السَّنَةِ الْعُلْيَا شَبَّهَ بِهِ بِيَاضُ
الْمَوْجِ •

وَالْمَوْجُ مَا يَشْبَهُ بِالْخَيْلِ كَثِيرًا •

دُهِمٌ فَوَارِسُهَا رُكَّابُ أَبْطُنِهَا

مَكْدُودَةٌ وَيَقْوَى لَابَهُ الْأَنْبُ

وَكَمَا وَصَفَ أَبُو الطَّيِّبِ السَّفْنَ صَنَعَ كَذَلِكَ أَبُو الْعَلَاءِ - وَذَلِكَ نَوْهٌ :

عَنِ نَجَاةٍ مِنَ الْفَرِّ صَادٍ أَيَّدَهُ

رَبُّهُ الْقَدُّومُ بِأَوْصَالٍ وَخِلَاعِ

سارت فزارت بنا الأَنْبَارَ سائلةً
تَرْجَى وتُدْفَعُ في مَوْجٍ ودفاع

وصوره المجذاف و لجهد اوضح في قول ابى الطيب :

دُهْبٌ فَوْرَسُهُ رَكَّابُ ابْنُهَا
مَكْدُودٌ ويقوم لابها الأله

وحس الأعى بحركة القارب وموسيقا لظم التير اطرافه أدق
في قول أبى علاء :

سارت فزرت بنا الأَنْبَارَ سائلة
تَرْجَى وتُدْفَعُ في مَوْجٍ ودفاع

ونسبق بَعْدُ فضيلة على اللاحق . والله تعالى اعلم .

وله أبى نضيب في الصيد والكلاب والفرْدِ قِطْعٌ وأراجيز لا تخلو من
احسن النسيجة واحسان وصفها . من ذلك ما تمثل به آتفا من قوله :

ما لسروج خُفْضِرٍ والحدائق يَشْكُو خلاها كثرة العوائق
ومنها :

ومَنْزِلِ نَيْسٍ نَبَا بِنَزَلِ
نَدِيٍّ أَخْزَمِي ذَفَرِ الْقَرْفَلِ
عَنْ لَدَائِهِ مَرَاغِي مُغْزَلِ
اغْذَحْسِنْ أُجِيدٍ عَنِ لَبْسِ الْحَلِي
وَلَا لَغِيرِ الْعَادِيَاتِ الْهَطَّلِ
مُحَلَّلِ مِلْوَاحِسِ لَمْ يُحَلَّلِ
مُحَيِّنِ النَّفْسِ بَعِيدِ السَّوْءِ
وَعَادَةِ الْعُرَى عَنِ التَّفْضُلِ
ثم اخذ بعد في نعت كلبه :

لَهُ إِذْ أَدْبَرَ لِحْظُ السَّقْبَلِ

كَتَمَّا يَنْظُرُ مِنْ سَجْنَجِ

يُتَقَعَى جُلُوسُ الْبَدَوِيِّ الْمَضَلِيِّ يَكَادُ فِي الْوُثْبِ مِنَ التَّفَقُّتِ
يَجْمَعُ بَيْنَ مَنْنِهِ وَالْكُلْكِ
ذِي ذَنْبٍ أَجْرَدٍ غُرِّ اعْزَلِ

ثم اخذ بعد يصف قتاله مع الغزال حتى اصطاده • وقد عيب عليه
فوله :-

كَانَتْهُ مِنْ عَيْسِهِ بِالْمُقْتَلِ عَلَّمَ بِقِرَاطٍ فَصَادَ الْأَكْحَلِ
فَقَالُوا إِنْ الْأَكْحَلِ لَيْسَ بِمُقْتَلٍ - وَعِنْدِي أَنْ أَبَا الطَّيِّبِ مَا أَرَادَ إِلَّا أَنْ يَكْبَهُ
اصْطَادَ عَلَيْهِ الْغَزَالَ وَلَمْ يَقْتُلْهُ حَتَّى ذَكَاهُ هُوَ فَهَذَا عِلْمُهُ بِالْمُقْتَلِ أَنَّهُ تَجَنَّبَهُ وَاللَّهُ
تَعَالَى أَعْلَمُ •

وَقَالَ فِي كَلْبٍ آخَرَ وَذَكَرَ الْمَنْظَرَ وَكَانَ جَبِيًّا :

وَشَامِخٍ مِنْ الْجِبَالِ أَقْوَدِ
فَرْدٍ كَيَافُوحٍ الْبَعِيرِ الْأَصِيدِ

تأمل هذه الصورة ••••• خنزوانة هذا الجبل الشبيه بأعلى رأس البعير
وهو يرغو ويتشامخ •

يُسَارُّ مِنْ مَضِيقِهِ وَالْجُلْمَدِ
فِي مِثْلِ مَكْتَنٍ الْمَسْدِ الْمُعْقَدِ

وهنا تجربة ومشاهدة • وما أحسب أحدا جرب ممرات الجبال إلا يرى
جودة ما ذكر أبو الطيب وهنا •

ثم اخذ في وصف الصيد وكيف ثار الخشف من مرعاه الأخضر النضر
الندي فأصابه الحتف ، ولكل أجل كتاب •

فشار من اخضر مَعْطُورٍ ندى
كأَنَّهُ بدء عِذارٍ الأَمْرَدِ
فلم يَكْـدُ الا لَحْتَفٍ يَهْدَى

ومن قطعة المَعْجَبَات ، وهي ما يلحق بباب الصيد قوله يصف
عين باز .

إذا نَظَرَ ابْـبَازُ في عِظْفِهِ كَسْتَهُ شُعَاعاً الى المنكب
وهذه صورة ناطقة •

وباب الشَّرَاب يلحق بباب الصَّيْد . ولم يَكُنْ أبو الطَّيِّب بصاحب
شراب وَلَكِنْ له في ذلك البَيِّتُ والبيتان . وقد يُحَسِّن كلَّ الاحسان
كعادته فيقول . مثلاً :

وَوَفَّتْ وَفَى بالدَّهْرِ لى عند وَاَحَدٍ
وفى لى بِأَهْلِيهِ وزادَ كَثِيراً
شَرِبْتُ على استِحْسانِ ضَوْءٍ جَبِينِهِ
وزَهْرٍ ترى للماءِ فِيهِ خَريراً

وقوله :-

أَحِبُّ حَمَصاً الى خُنَاصِرَةٍ	وكلُّ نَفْسٍ تُحِبُّ حَيَاهَا
حَيْثُ التقى خَدَّهَا وتَفَاحَ لُبْنَانُ	وَتَغْـسِرِ على حَيَاهَا
وَصِفْتُ فِيهَا مَصِيفَ بَادِيَةٍ	شَتَوْتُ بالصَّحْصَحَانِ مَشْتَاهَا
إِنْ أَعْشَبَتْ رَوْضَةً رَعِينَاهَا	أَوْ ذُكِرَتْ حِلَّةٌ غَزُونَاهَا
أَوْ عَرَضَتْ عَائَةً مَقْرَعَةً	صِدْنَا بِأَخْرَى الْجِيَادِ أَوْلَاهَا
وَالْخَيْلُ مَقْرُودَةٌ وَطَارِدَةٌ	نَجَرْتُ طَوْلَى الثَّقَنَاءِ وَقُصْرَاهَا

وما أظن أن أحدا أثبت صورة تَفَاحِ لَبَنانٍ كما فعل أبو الضَّيْبِ ههـ
وفي هذه القصيدة لَفَتَاتٌ أُخِرَتْ بِأَرَعَاتٍ جَدًّا - متن قوله :

نَعُومُ عَوْمَ الْقَذَاةِ فِي زَبْدٍ
مَنْ جُودٍ كَفَّ الْأَمِيرَ بَعْشَاهُ

والصورة مُنْتَزَعَةٌ مِنْ إِزْبَادِ السَّيُولِ وَمَا يَطْفُفُو عَلَيْهِ مِنْ غَشَاءٍ *
وقوله :-

أَبَا شَجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضْدَ الدَّوْلَةِ فَتَنَّا خَسِرُوا تَهْنِئَتَهُ
أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَتَهُ وَإِنَّا لَدَعَاءٌ ذَكَرْنَاهُ
تَقُودُ مُسْتَحْسِنَ الْكَلَامِ لَنَا كَمَا نَقُودُ السَّحَابَ عَضْدَهُ
وهذا موضع الاستشهاد وفي ضِيَّهِ معنى مشاهدة سَحَابِهِ كَبِيرَةٍ تَبْرُقُ
وترى صغار السحب نحوها مُرْقِلاتٌ * وعين هذا المعنى أَشْرَبِيهِ فِي قَوْلِهِ
الَّذِي مَرَّ آتِفًا :-

تَلَاكَ وَبَعْضُ الْغَيْثِ يَتَّبَعُ بَعْضَهُ
مَنْ الشَّأْمِ يَتَلَوُ الْحَاذِقُ امْتَعَلِمَ
ومما جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الْقَنْصِ وَذِكْرِ اللَّيْلِ وَالصَّيْدِ وَالشَّرَابِ قَوْلُهُ :-

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعُذَيْبِ وَبَارِقِ
مَجْرَعِ عَوَالِينَا وَمَجْرَى سَوَابِقِ
وَصُحْبَةِ قَوْمٍ يَقْتُلُونَ قَنِيصَهُمْ
بِفَضْلَةٍ مَا قَدْ كَسَرُوا فِي الْمَارِقِ

تأمل هنا تسجيله لَيْنِ ثَرَى الثَّوْيَةِ وَطَيْبَ مَسِه - وَوَاوَزَ بَيْنَ هَذَا
قَوْلِهِ الَّذِي مَرَّ آتِفًا :

لَمْ تَفْتَقِدْ مِنْكَ مِنْ مُزْنٍ سِوَى شَقٍّ

وفوه :-

كَأَنَّ الْجَوَّ وَعَثَ أَوْ خَبَرَ

لوعث لرمس الذي تغيب فيه الارجل . هكذا شرحه العكبري ، والخبار
الارض مبنية - نينا سوخ فيه الاقدام كما يبدو من السياق . وهذا خلاف
الشرى الذي كنه عنبر في المرافق بلا تنك . وقبل الشطر الرائي الذي
استشهد به آخر ا قوله ، وفيه روح م ذكرناه من خنط منظر الطبيعة
بحركه نقدر :

فَأَقْبَبَ مَرْوَجٌ مُسَوِّمٌ ضَوَامِرَ لَا هِزَالٍ وَلَا شِيَارٍ
وفوه لا شيار أي لاسان
تثيرٌ على سلميةً مسبطرا ...

أي عجز مسبطراً أي متدا قال الآخر يصف سير نقته :
ومن سبره العنق المسبطر والعجفية بعد الكلال
هذا

نثيرٌ على سسيةً مسبطراً تناكر تحته لولا الشععار
عجز نعس العقبان فيه كأنَّ الجوّ وعَثَ أَوْ خَبَرَ
ومما يلفت النظر اليه هنا استكمال الصورة المروج
واعجز رعبان . والخيّل بضيعة الحال ، في مقدّمة المنظر .
ونعود الى لايت القافية :-

ولبلا نوسدا الثورية تحته

كَأَنَّ نَراها عَنبرٌ في المرافق

بِلَادٍ إِذَا زَارَ الْحَسَنَ بَغِيَهَا

حَصَى تَرْبَهَا ثَقَبَتْهُ لِسَخَانِق

وكما اثنى على الثرى . اثنى على الحصى - وما احسب الا ان
الأندلسية رحمتها الله ، نظرت الى هذا البيت حيث قالت في وصف الوادي :-
يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَذَارَى فَتَلْسِسُ جَانِبَ الْعَقْدِ النُّظْمِ
والبيت جيّد والنوليد في الشعر مذهب متلئب ، يأخذ
الاخير عن الاول وكل اولئ صوب الحجاج كما قال ابو تمام .

سَقَتْنِي بِهَا الْقَطْرُ بُلْبُلِيَّ مَلِيحَةً

على كاذبٍ من وعدها ضوؤه صادق

الى آخر ما قال . وانما اوردنا هذه الايات لمكان وصف الحصى والثرى
وحياة العراء والهواء الطلق فيها .

هذا

ولابى الطيب بعد مواضع اُضالَ فيهن ووصف الصبيعة بعصر
الطول ورُبَّمَا كان ذلك عن اقتراح من ممدوحيه . على أنه لم يخرج عن
مذهبه من جعل كل ذلك طرفاً من حيويته هو وحركته الدائبة . وحساسه
القوى بتجارب ما شاهد وانطبع في فؤاده ودفعه الى التغنى والبيان .

من ذلك آياته في البحيرة التي جعلها خاتمة مدحه لعلى بن ابراهيم
التنوخى وفيها قوله :

نُؤْلَاكَ لَمْ أَتْرَكَ الْبَحِيرَةَ وَالْ	غُورُ دَفِيٍّ وَمَاؤُهَا شَبِيهُ
وَالْمَوْجِ مِثْلَ الْفُحُولِ مَزْبَدَه	تَهْدِرُ فِيهَا وَمَا بِهَا قَقَمٌ
وَالنَّظِيرُ فَوْقَ الْحَبَابِ تَحْسِبُهَا	فَرَسَانِ بُلْبُلٍ تَخُونُهَا أَنْشَجُهَا

كَأَنَّهَا وَالرِّيحَ تَضْرِبُهَا
كَأَنَّهَا فِي نَهَارِهَا قَسْرٌ
نَاعِيَةً الْجِسْمَ لَاعِظَةً لَهَا
يُبْقِرُ عَنْهُنَّ بَطْنُهَا أَبَدًا
نَعْنَتِ الطَّيْرُ فِي جَوَانِبِهَا
فَهِيَ كَمَاوِيَّةٌ مَطْوِقَةٌ
يَشِينُهَا جَرِيئُهَا عَلَى بَدَدٍ

جَيْتَمًا وَغَىٰ هَازِمٌ وَمَنْهَزِمٌ
حَفًّا بِهِ مِنْ جِنَانِهَا ظَلَمٌ
لَهَا بَنَاتٌ وَمَا لَهَا رَحِمٌ
وَمَا تَشْكِي وَمَا يَسِيلُ دَمٌ
وَجَادَتِ الْأَرْضُ حَوْلَهَا الدِّيمُ
جُرْدٌ عَنْهَا غِشَاؤُهَا الْأَدَمُ
يَشِينُهُ الْأَدْعِيَاءُ وَالْفَزَمُ

الى آخر ما قال

والايات في جستها جيدة • وفي البيت الاول رضا بالدَّفْعِ وَحُبٌّ
له • ووازن بين هذا وقوله :-

وَقَدْ نَدَفَ الصَّنْبُرُ فِي طَرْقِهَا الْعُضْبَ

وقوله :

يَقْمِصُنْ فِي مَثَلِ السُّدَى مِنْ بَارِدٍ
يَذَرُ الْفُحُولَ وَهْنٌ كَالْخَصِيَانِ

وقوله :-

يَعْقِدُ فَوْقَ السِّنِّ رَيْقَ الْبَاصِقِ

والبيت الثاني فيه الاحساس بِقُوَّةِ الموج وازياده وقد حاءت
هذه الصورة أكثر وضوحا في قوله :-

وَاحْذَرَهُ إِذَا كَانَ مَزِيدًا

وفي قوله :-

وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَهَا مِتْلَاطِمٌ

وقوله (والضَّيْرُ فوقَ الحَبَابِ) أثبت فيه انصباع صورتين ، الضَّيْرُ
والأمواج وُحسب ان اهتمامه بتشبيه امواج بالخيل وفرسانها اضع عليه
اكمال ما بدا فيه من أمر صورة الضَّيْر •

وصورة تشبيه امواج بالخيل اوضح في بيت التشبيه الذي جاء به في امسية
ذات الهاء الساكنة في مدح سيف الدولة :-

وَأَحْسَنُ مَنْ مَاءِ الشَّيْبَةِ كَتَّه
حيـا بـرقـ في فـزة انـا تـائـه

عليها ريـضـ له نـحـكـهـ سـحـابـةـ

وَأَغْصَانُ دَوْحٍ لَهُ نَغْنٌ حَمَائِسُهُ

وفوق حواشي كثر سوبٍ مُوَجَّهٍ

من الدر سبطٍ له يثَّبه نَظْمُهُ

نرى حيوان البرِّ مضطج به

يـحـاربـ ضـيدـهـ ويـسـالـهـ

إذا ضربه الرِّيحُ مـجـ كـأنـهـ

تـجـولـ مـذاكـيهـ ونـدأـى ضـراغـيهـ

الشاهد قوله (تجول مذاكيه) - وغير خاف ان هذه الصورة تشبه

بأمواج البحر ذهاب عيبه ، ريح منها بأمواج البحر ذي استبج الغضـمـطـ
وقوله :-

كأنَّهـ في نـهارهـ فـسرـ حـفـاً بـهـ من جـانـهـا غـمـ

فيه ما قدم من قوّة شعوره بضوء القمر وبهاء اشعاعه • تم احسبه

نظر فيه اي قول ابي تمام :

نرى نهراً مشمساً قد ناب

زاهراً الرببا فكأنما هو مقسّر

وَأَحْسَبُ أَنَّ مَقَالَ أُنْدَرُو مَازْفِيلُ Agreeen Shade فيه صِبْغٌ من
فَلَّانٍ مَعْنَى أَبِي نَسَاءٍ إِذْ لَا يَكُونُ الظِّلُّ خَضِرًا إِذَا كَانَ عَلَيْهِ شُعَاعٌ من
خَضِرَةِ الْوَرَقِ •

وَعَجَزَ فَوَلَهُ :-

عَيْةُ الْجِسْمِ الْأَعْضَاءُ لَهَا لَهَا بَنَاتٌ وَمَالُهَا رَحِمٌ
مع ما فيه من تصوير حيوان الماء دون صدره - بل يونسث صدر
صدره ان يكون هو لب البيت ناعمة الجسم . ما فيه من قوة الاحساس
بين مس ماء البحيرة وهي ساكنة وقوله :-

لَعَنَتِ الظِّيرُ فِي جَوَانِبِهَا وَجَدَتْ لَارِضَ حَوْلِهَا الدِّيمِ
حي الصورة . مشرق بالضوء والنسيب ورنات موسيقا الطبيعة •
وقوله :-

فَهِىَ كَسَوِيَّةٍ مَطْوِقَةٍ جَرَّدَتْ عَنْهَا غِشَاؤُهَا الْأَدَمِ
كأنه مأخوذ من قول امرئ القيس :-

وَعَيْنٌ كَمَرَاةِ الصَّنَاعِ تُدِيرُهُ مَحْجَرُهُ مِنَ النَّصَبِ مُسْتَقْبِ
وهو جيد في التشبيه . الا ان الصورة التي مرت في قوله كأنها في
يأرها فسر « اوضح وأجود •
ثم قوله :-

نَسَبَهَا جَابِئُهُ عَلَى بَنَدٍ يَشِينُهُ الْأَدْعِيَاءُ وَالْقَزَمُ
نَسَبَ لَمْ يَكُنْ ابْتَدَأَ بِهِ وَصَفَ الْبَحِيرَةَ مِنْ فَوَلَهُ :-

لولاك لم أترك البُحْبُرةَ وإن غورُ دَفْيءٍ وماؤُها شُبُه

وهو في جبلته قريب من قوله في ما بعد . عندما رأى شعب بوان

أَعَن هذا يُسَارُ إلى الضعان

ولا يَخْفَى ان التعبير هنا أَنْضَجُ وأجود . على أن المعنى الذي راده

في الميمية هو عَيْنُ المعنى الذي استطاع إيضاحه وتبَيُّينه ههنا - وهو

ضرورة مغادرة الخفض والطيات من أجل الحَرْب ذات الشدائد . ما

لا يجد امرء منه بُدّاً في كثير من الاحيان .

واحسب ان هذا المعنى عينه هو الذي أجمله وجاء به على سبيل الحكمة

في قوله :-

ومَرَادُ النُّفوسِ أَصْفَرُ من أَن تَتَعَادَى فِيهِ وَأَن تَتَفَانَى

غَيْرَ كَنِّ الْفَتَى يَلَاقِي الْمَنَايَا كَالْحَاتِ وَلَا يَلَاقِي الْهَوَا

والادعاء والقزم من مَعْدِنِ الهوان وضريرته بلا ريب .

هذا ومن ذلك ايضا لامبته الارجوزة . التي وصف بها الصيد مع عضد

الدولة ومطعها :-

ما أَجْدَرُ الْآيَامِ وَالْيَالَى .

ووزنها من السريع مستفعلن مفعولن ، وان شئت عددته من "رجز

دخله" القطع - مُسْتَفْعِلٌ وَكَأَنَّ من أَبَى هذا كِرَاهَ أَن يُنْصَارَ

بشيءٍ أصه وتد الى سَبَبٍ كل منهما أصل في نظام العروض وفي هذا

نظر . والأراجيز المشطورة كأنها أدنى الى النثر من القصيد المحكم . واحسب

هذه الكسة من أبى الطيب لو قد كانت في أسوب قصيده المحكم لكان

مكانها من شعره أعلى وأفحل

ومع ذلك فهي فريدة حقا في بابها لما اشتتت عليه من ضروب التأمل
والنظر الدقيق والنجارب السريعات المتلاحقات مع سلاسة وانفاس مريح
وفكاهة .

بدأ بمقدمة قصيرة تغنى فيها بنىء من الفخر اولا :-

ما أجدر الايام واليالي بأن تقول ما لله ومالي
لا أن يكون هكذا مقالي فتىً بغيران الحروب صالي

وهذا كما ترى فيه معنى ضيق نفسه بما لزم اليه من صراع .

منها شرابى وبها اغتسالي لا تخضر المحتشأ لي ببال

وأحسب نقى الفحشاء عن نفسه دعاه اليه قوله «وبها اغتسالى» في قافية

الشرط الذي قبله . فهذا من باب تداعى المعانى كما ترى . حتى اذا قال :

وكيف لا وانما دلالي بفارس المجروح والشمال

أخذ في مدح عضد الدولة مختصرا ذلك فذكر شجاعته وانتصاره على

الاعداء .

حتى اتقت بالفر والاجفال فهالك وضائع وجالى

ثم أخذ من بعد في التماس اللذات الشريفة لنفسه بالصيّد وهو

نزهة المولك .

سارى لصيّد النوحس في الجبال وفي رفاق الارض والرمال

على دماء الانس والاوصال

وهذه صورة فظيعة . وزعم ابن بطوطة أنه لما كان بالهند ذهب الى وليمة

عند أحد الامراء . فأصاب حافير فرسه بعض أوصال القتلى عند

نِباب فتأمل .

مُنْفَرِدٍ الْمُتَهَرِّجِ عَنِ الرَّعَالِ

ثم أخذ يصف سير الخيل الى الصيد في تدير محكم •

ما يتحركن سوى انسلاال فهن يُضْرَبْنَ عَلَى التَّصْهِالِ
كله عليل فوقها مختال يُنْسِكُ فَاهُ خَشْيَةَ السَّعَالِ

وهذا بلا ريب أخذه من قول رؤبه يصف الصائد حيث اختفى ينظر
ورود الوحش :-

فَبَانَ وَالنَّفْسُ مِنَ الْحِرَاصِ الْفَشَقْ

فِي الزَّرْبِ لَوْ يَمْضَغُ شَرْبًا مَا بَصَقَ

أي من حرصه الشديد ألا يسمع الوحش فينفر كن في زربه وهو
مخبؤه لو مضغ حنظلا - والشَّرْى هو الحنظل وهو أمره الاشياء -
ما بصق •

وليت شعري عن رؤية كيف تغفل عن صَوْتِ مَضْغِ الْحَنْظَلِ نَفْسَهُ
ولعله ان يَعْتَذِرَ معتذر له بأنَّ لَوْ يَمِيدُ عَدَمُ الْوُقُوعِ اذ هي حرف ما كان
سيقع لوقوع غيره •

يُنْسِكُ فَاهُ خَشْيَةَ السَّعَالِ مِنْ مَضْغِ النَّفْسِ إِلَى الزَّوَالِ
ثم أخذ بعُد في صفة صحراء الارزن وحيوانها وما رَوَّعها به
الامير وصحبه من دَمَوْبَةِ واصطياد •

سَقْيًا لَدَشْتِ الْارْزَنِ الضَّوَالِ

بَيْنَ الْمَرْجِ الْفَيْحِ وَالْأَغْيَالِ

هذه هي الصورة الكبيرة العامة - صحراء واسعة ممتدة بعضها مروج
وبعضها غاب •

داني الخنايص من الأشبال
مُسْتَشْرِف الدُّشْب على الغزال
مُجْتَمِع الاضداد والاشكال

الخنائيص صغار الخنازير ... والمكان كما ترى أشبه شيء بالغابات
سبحية التي تجعل الآن ملاجئاً لنادر الوحش في أواسط أفرقية مثل
سـ وجنوب السودان وغير ذلك من البلاد :

كَأَن فِتْنًا خُسِرَ ذَا الْاَفْضَالِ
خَافَ عَلَيْهَا عَوَزَ الْكَسَالِ
فَجَاءَهَا بِالْفِيلِ وَالْفَيْئَالِ

اذ لم يكن دشت الارزن نفسه مكان - فيلة - ثم هذه فيلة من
سوع المروض المقاتل . فهي كالخيل ليست من الوحش ولكن امتداد
بشر .

ثم اخذ أبو الطيب يَصِفُ ضروب الوحوش فافتن في ذلك أي
عدن مثل قوله في وصف الایائل وقرونهن الطوال الثفال :

وُلِدْنَ نَحْنُ أَثْقَلُ الْأَحْصَالِ
إِذَا تَلَفَّتْنَ إِلَى الْأَظْلَالِ
أَرَيْنَهُنَّ أَشْنَعَ الْأَمْثَالِ
كَأَنَّمَا خُلِقْنَ لِلْأَذْلَالِ
زِيَادَةً فِي سُبَّةِ الْجَهَالِ

لأن قرونها طوال ثقال بلا جدوى فهي مَسَا كَأَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ إِلَّا لَان
سـ به من يُسَبِّد فيقال هذا ذو قرون إذا كانت زوجته تَخُونُهُ .

والعُضْوُ ليس نافعاً في الحال

لسائر الجسم من الخيال

ثم اخذ في صفة هذه الدّحي المضحكات . وأنها ليست لها سبيل .
جسّع فادر :-

وَأَوْفَتْ الْقُدْرُ مِنْ الْأَوْعَالِ مَثْرَدِيَّاتٍ بِفِئَةِ الضَّالِّ

يعنى قرونها شبيهها بفئ الضال وهو ضرب من السدور مستقيم
العصون ولعري إن القدر فرونها انفسها ما كانت تجعل افواس فيكن

في ما ذكروا شديديات النزع :

لَهَا لِحَى سَوْدٌ بِلَا سَبِيلٍ تَصْنَحُ لِلْاضْحَاكِ لَا الْإِجْلَالَ

ثم اخذ في صفة هذه الدّحي المضحكات . وأنها ليست لها سبيل .
بدليل قوله في هجائه كافورا وصحبه :

أَغَايَةِ الدِّبْنِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ ***

الايات *****

وانها تَضَخُّ بِالْأَبْوَالِ وَالزَّبَدِ *** وَلَيْتَ شَعْرِي عَنْ أَبِي الضَّيْبِ
كيف كان يقول لو علم أن بعض الناس هكذا يفعلون •

كُنْ أَثِيثٌ نَبَتْهَا مِتْفَالٌ لَمْ نَعْدَ بِالسِّتِ وَلَا التَّوَالِي
تَرْضَى مِنَ الْأَدْهَانِ بِالْأَبْوَالِ وَمِنْ ذَكَاةِ السِّتِ بِالْأَدْمَالِ
لو سُرِّحَتْ فِي عَارِضِ مُحْتَالٍ لَعَدَّهَا مِنْ شَبَكَاتِ الْمَالِ
وغير المال من أعراض هذه الدنيا الزائلة - ولا زالت هذه التجارة بين

البشر ذات رواج •

تم أخذ يصف المقتلة الرهيبة التي نلت لتلك الوحش اللاتي كن قبل
من آمنات •

— اودعتها عتل الرجال في كل كبد كبدى نصال
فهن يهوين من القلال •

اي رؤوس الجبال •••••

مقلوبة الأضلاف والإرقال

اذ صرن جئائز بعد نبض الحياذ ••

يُرففن في الجوّ على المَحال

أي على فقار الظهر •••

في طرق سريعة الإيصال

لا يتسكّين من الكلال

ولا يُحاذِرُن من الضلال

يا للأسف •••••

ثم طفر خياله فذكر جزيرة العرب . حيثُ بسِيطةُ الي جابتها
كئبه جوبُ الرداء •

جابت بسِيطةُ جوبُ الرداءِ بَنَ النعم وبَيَّنَ المها

فخافَ على وَحشها ووَحنَ نظيراتها دوانِ النِّعمادِ وأما والضباب

والأورالِ مِنْ بَأْسِ الأميرِ أن يصيبها مِثْلُ ما أصاب القُدْرَ

١. بُدِ بدشتِ الأرزان :

نَحسُ نَجْدٍ منه في بَلْبالٍ يَخْفَنُ في سَسَى وفي فيال

سَسَى جَبَلِ طَبْءٍ وقِيالِ لَبْنى عامر

عَرِ الضُّبابِ وألأورالِ والخاصباتِ الرَدْبُدِ والرئال

والخاصباتُ النعامِ والرئالُ أولادهن جَمْعُ رَأَلٍ
الطبي والخنساءِ والذئبالِ يَسْعَنُ من أَخْبَارِهِ الْأَزْوَالِ
أي العجبية •

ما يَبْعَثُ الخُرْسَ على السُّؤالِ
محولتها والعوذُ والتمتارُ نودُّ لو يُتَحَفَّها بَوَالِ
يَرَكِّبُهَا بِالْخَطِّمِ وَالرَّحَالِ
أي فتَصِيرُ أَلِيفَةً مُذْعِنَةً كَالْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالضَّأْنِ وَالْمَعْزَى
يَتَوَمَّنِهَا مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَالِ
وَيَخْمُسُ الْعُشْبَ وَلَا ثِبَالِي

أي يَأْخُذُ مِنْهَا خُمْسَ الْعُشْبِ فيجعلُه من نصيبِ غيرها مِمَّنْ تَأَلَّفَتْهُ
ابْنُ آدَمَ مِنْ قَبْلِ
وفي الوحشِ مِنْ ضَبَابٍ وَأَوْرَالٍ وَبَعْضِ الْغَزَالِ مَرَاكِبُ لِلْجِنِّ فَلَابِدُ
من فُهِرِ الْجِنِّ -

فَأَكْسَدَ أَبُو الطَّيِّبِ طَعْفَرَةَ خِيَالِهِ الْبَدِيعَةَ بِقَوْلِهِ :
لَمْ يَبْقَ إِلَّا صَرْدُ السَّعَالِ
وهن نساء الغيلان . ضَرَبَ مِنْ الْجِنِّ . وَقَالُوا مِنْهُنَّ نِسَاءٌ صَدَقَ .
وإِشَارَةُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَبُو الْعَلَاءِ فِي رِسَالَةِ الْعُمَرَانِ حَيْثُ ذَكَرَ حَدِيثَ
نَابِطٍ شَرَا وَأَيَّاتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

أَنَّ الَّذِي تَكْحَجُ الْغِيلَانُ فِي بَلَدٍ
مَا طَلَّ فِيهِ سَاكِيٌّ وَلَا جَادَا

بَحِيْثٌ لَا يَعْصِيْتُ الْغَادِي عَسَايَتَهُ
وَلَا الظِّلِيْمُ بِهِ يَبْغِي تَهْبِئَاتِهَا

وَقَدْ لَهَوْتُ بِصِقْوْلِ عَوَارِضِهَا
بِكُرٍّ تَنَازَعْنِي كَأْسًا وَعَنْقَادًا

ثُمَّ انْقَضَى عَصْرُهَا عَنِّي وَعَقْبُهُ
عَصْرُ الْمُنِيبِ فَقُلْتُ فِي صَالِحٍ بَادَا

ولا استبعد أن يكون أبو العلاء قد أخذ فكرة رسالة الغفران كلها من
سَطَحَاتِ أَبِي الطَّيِّبِ فِي هَذِهِ اللَّامِيَّةِ - كَالَّذِي تَقْدَمُ مِنْ صَنْبِ الْوَحْشِ أَنْ
جَعَلَ الْأَمِيرَ عَلَيْهَا وَالِيًا وَادْعَانَهَا لِتُرَكَّبَ تَمَّ مَا صَارَ إِلَيْهِ أَبُو الطَّيِّبِ بَعْدَ مِنْ
صِفَةِ مَطَارِدَةِ السَّعَالِيِّ عَلَى ضُحُورِ الْإِبِلِ فِي اللَّيَالِي غَيْرِ الْمُقَرَّاتِ •

لَمْ يَبْقَ إِلَّا طَرْدُ السَّعَالِ
فِي الظُّلَمِ الْغَائِبَةِ الْهَلَالِ
عَلَى ظُهُورِ الْإِبِلِ الْأُبَّالِ

أَيُّ الطَّوِيلَةِ الصَّبْرِ عَلَى الْعُطَشِ •

فَقَدْ بَلَغَتْ غَايَةَ الْآمَالِ
فَلَمْ تَدَعْ فِيهَا سِوَى الْمَحَالِ
فِي لَامَكَانٍ عِنْدَ لَا مَنَالِ

وَفِي رِسَالَةِ الْغُفْرَانِ شَوَاهِدٌ قَوِيَّةٌ مِنْ مَعْنَى اتِّتِفَاعِ أَبِي الْعَلَاءِ بِأُخِيْلَةِ هَذِهِ
الْجُوزَةِ - مِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي نَعْتِهِ مُرَاكِبِ الْجَنِّ عَلَى لِسَانِ أَبِي هَدْرَشٍ :

حَسَنٌ فِي الْجُنْحِ خَيْلٌ لَهَا أَجْنَحَةٌ لَيْسَتْ كَخَيْلِ الْأَنْبَسِ
نَسَبٌ نَسَبُ ابْصَارِكُمْ مَخْلُوقَةٌ بَيْنَ نَعَامٍ وَعَيْسِ

كأنه يعلق بهذا على قول أبي الطيب :

في الظلم الغائبة الهلال على ظهور الإبل الأبل
كأنه كَوْنُ الأبل أبلًا وحده لا يكفي . فينبغي ان يكون غريبه
الهيئة بينَ النعام والإبل . فهذا أشبهه بالجن كما ترى . ولعله أخذ
قوله (بين نعام وعيس) من قول أبي الطيب :

بينَ النعام وبين المها

ومع ان المراد ببيّن هنا التوسط . لا يخفى ان صورة ناقة أبي
الطيب بين هذين الصنفين قد تسح الخيال شكلاً أشبه بها نعته أبو
العلاء وهذا بُعدُ بابٍ ما يطول فيه مجال الاسفصاء فنكفي
منه بهذا القدر ان شاء الله .

هذا واختتم أبو الطيب لأمينه بقوله :-

وربّ فبح وحلى تقال أحسنُ منها الحُسْنُ في المعطال
فخر الفتى بالنفس والفعال من قبله بالعم والاخوال
واحسبه جسع الاخوال لما فيه من معنى الاء . كأنّ مراده ، بلاد
وعشيرتها . وذلك لانه كان يسكنه ان يقول بالعم أو بالخال . وليس
بجيدٍ جودّة هذا والله اعلم .

وهذه المعاني بعد . حسن المعطال والفخر بالنفس والفعال فديسة
عميقة في قلب أبي لطيب وقد مر بك قوله :-

أغناه حُسْنُ الجيد عن لبس الحلى

وعادة العرى عن الفضل

كأنه مضخّ بصند

هذا يقوله في غزال من ارجوزته « ومنزل ليس لنا بمنزل » وقوله
وعادة العري عن التفضل « يستفاد منه أن النساء على زمانه كن ربسا تزين
بعض هذا • وقوله من البائية :-

لا بَرَزْنِ من الحِثِّ مَنِيَّةً أوراكن صَقِيلَاتِ العراقِيبِ
صريح في هذا المعنى •

وقوله :-

ابن من بعضه يَنُوقُ آبا الباحث والنَّجَلُ بَعْضُ من نجده
سا يَذْكَرُ الجَدودَ لهم من نَفَرَوْه وانفكدوا حيكه
وقوله :-

ي الاجداد تغلبها جميعا عى الاولاد اخلاق اللام
س بقانع من كل فُضِّلَ بأن أعزى الى جد هـام
وهذه النهاية أعنى نهاية لاميته حيث قال :-

حر لفتى بنفس والفعال من قبله بالعم والاخوال
من سنخ ما ابتدا به اولاً حيث قال :

ما أَجْدَرُ الايام والليالى
بأن تقوُلَ ماله ومالى
لا أنْ يكونَ هكذا مقالى
فتىً بِنيرانِ الحروبِ صالى
منها شرابي وبها اغتسالى
لا تَخْطُرَ الفحشاءُ لى ببال

في هذه الأرجوزة من خفة الروح وعفوية الأداء وسخاء الطبع ما كأنه
مباين للمألوف من سخونة ابي الطيب وذكورة شخصيته وصرمتها . ولذلك
ما زعمنا أننا فيها بابها فريدة . على ان جميع هؤلاء الصفات اللاتي هي
بهن فريدة مما اخترته عبقرية ابي الطيب في أغوارها دهرًا . وهو بعد
القائل :-

لَقَدْ أَصْبَحَ الْجُرْذُ الْمُسْتَعِيرُ أَسِيرَ الْمَنِيَا صَرِيحَ الْعُطْبِ
رَمَاهُ الْكِنَاشِيُّ وَالْعَامِرِيُّ . وَتَلَاهُ لِنُوجِهِ فِعْلُ الْعَرَبِ
كَلَا الرَّجْلَيْنِ اتَّكَى فَتَنَهُ فَأَيْشَهُمَا غَلَّ حُرَّ السَّبَبِ
وَأَيْشَهُمَا كَانَ مِنْ خَلْفِهِ فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً فِي الْمَذْنَبِ

فهذه من معدن

لو شَرَّحت في عارضٍ مُحْتَالٍ لعدّها من ثَبَكاتِ الْمَالِ
بَيْنَ قَضَاةِ السُّوءِ وَالْجُثَّةِ

والقائل :-

صَحَبْتُ فِي الْفُلُواتِ الْوَحْشَ مُعْتَرِبًا
حَتَّى نَعَجَّبَ مِنْ الْقُورِ وَالْأَكَمِ

ومحل الاستشهاد ههنا ان هذا البيت قاله في ميسرته .

واحرّ قلباه ممن قلبه شبه

وكأنما يأنس به إلى الْوَحْشِ مِنْ مَجْلِسِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ . وقد ذكر ابن
هشام صاحب مغنى اللبيب واو الثمانية فنسب أمر التمسك بقضيتها الى
بعض ضُعفاء النحاة مثل ابن خالويه . ويبدو لي أنه ما نص على ابن خالويه

سَعِيفاً فِي النَحَاةِ إِلَّا لَمَّا كَانَ مِنْ مَكَانِهِ فِي عِدَاوَةِ أَبِي الطَّيِّبِ وَمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ
سَجَّهَ بِمِفْتَاحٍ لَمَّا انْشَدَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ ، قَالُوا فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :-

نَ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِحِجْرٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمْ
يَعْنَى بِالْحَاسِدِ هَهُنَا جَسَاعَةُ الْحَسَادِ كُلَّهُمْ ابْنُ خَالُوِيهِ وَأَبَا فِرَاسٍ
وَهُمْ جَرَا

وَمِنْ هُنَا تَرَى وَجْهَ صَوَابِهِ إِذَا اسْتَقْرَبَ الْوَحْشَ بِالْقُورِ وَالْأَكْمَ دُونَ
هَؤُلَاءِ .

وَمَا أَبْعَدَ فِي هَذَا الَّذِي صَنَعَهُ عَنْ مَذْهَبِ الشَّنْفَرِيِّ حَيْثُ قَالَ :-

قَيِّمُوا بَنِي أُمَّيْ صُدُورَ مَطِيكِمِ
فَإِنِّي أَلِى قَوْمٍ سَوَاكُم لَأَمَّيْلِ

وَلِ دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدِ عَمَلَسْ
وَأَرْقُطُ زُهْنُوتٍ وَعَرْفَاءُ جِيَالِ

هَمْ أَهْلُ لَا مَسْتَوْدَعِ السَّرِّ ذَائِعِ
لَدِيهِمْ وَلَا الْجَانِي بَسَا جَرٌّ بِخَذَلِ

وَقَالَ يَذْكُرُ بِأَسْ سَيْفَ الدَّوْلَةِ فِي الْعَرَبِ وَالرُّومِ فِي لَأَمِيَّتِهِ أَجَابَ
-مَعَى وَمَا الدَّاعِي سَوَى طَلَلِ « :-

فَالْعَرَبُ مِنْهُ مَعَ الْكَدَرِيِّ طَائِرَةٌ

يَعْنَى الْقَطَا وَارْتِبَاطُهُ بِالْعَرَبِ وَارْتِبَاطُهُمْ مَعْرُوفٌ وَقَدْ نَعْلَمُ فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ
-حَبِ اللَّامِيَّةِ :-

كَانَ وَغَاها حَجَرْنِيهِ وَحَوْلَهُ

أَضَامِيهِمْ مِنْ سَفَرِ الْقِبَائِلِ رُحْلِ

فهذا

والروم طائفة منه مع الحجل

والحجل شالي المنزع وهو من حسان الطير اكبر من الحمام والنقطة

وما انفرار الى الأجل من أسد

تمشي النعام به في معقل لوعول

وكلا النعام والوعول فروران وما اراد بالنعام هنا إلا أعداء سيف الدولة

من العرب اذ اعتصموا منه بالجبال كما تصنع الوعول - ومعرفة ابي الصيب

بالصيد والصحراء يتردد ذكر الاسد والنعام والوعول والمهمل والغزلان . لا

على سبيل التقيد والمحاكاة ، في شعره كثيرا - من ذات ما تقدم ومن قوله :

فَتَيْتَ معترِماً ولا أسدً ومضيتَ منهزماً ولا وعول

وفي الايات الالامية المتقدمة قوله :-

فكلما حملت عذراء عندهم فإنما حلت بالسبى والجمل

جاز الدروب الى ما خلف خرسنه ، وهي من أرض الروم وزال عنها

وداك الروع لم يزل *

وكأن استغراب الروم وبني عمهم الفرنجة لجمل ونسبتهم يده الى

دار العرب والاسلاء قد كان منذ ذلك الزمان وما أحسب أن احدا أبى عن

هذا المعنى كما صنع أبو الطيب ههنا - فهذا من باب ثباته على لمحت ادي

لا ينكر ما نبه عليه ابن الأثير في امثل السائر *

وذكر أبو الطيب شعب بوان فقال :-

مغانى الشَّعبِ طيبا في المغاني

والنصب هو الوجه والتقدير تزويد طيبا أو نصيب طيب أو طيبا لها

بمنزلة الرئيــــــــــــــــع مع من الزمان

ولكنّ الفتى العربى فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ
وكأنه هذا يوم نفسه على عظم ارتياحه لهذا المكان وفرحه به

وفي القصيدة حين "أنى بلاد العرب كأنه يحمل في طياته نوعاً من الشعور
الخفى بقرب أمنية :

ملاعِبُ جَنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سَلِيلَانِ لَسَارَ بَتْرَجِسَانِ

هنا أبو الطيب مباعد نفسه عن بهجة منظر الشعب ومرض مراه مخالطته
نَوَّعَ من ترددٍ بدَاوَةٍ واستحيائها ثم إذا به يدعوه المنظر الكريم
إلى أن يَنسُجَهم معه ويتشبع به - فكُنِيَ عن نَفْسِهِ بحِصَانِهِ . وأُورِدَ دَلِيلُ
مَوَارِدِ الجَمَاعَةِ . لما يناسب دَلِيلُ رُوحِ التَّبَاعِدِ والترددِ والاستحياء
ونذكر هنا مقال ابن رشيقي أن أبا الطيب كان مَسِيئًا نَسِيئًا إلى الخيل
في الباب الذي يقع فيه ذِكْرُ الأَبْلِ والنسيبِ وَيَسْتَنَعِشُ فِيهِ بَعْضُ
المولدين ذِكْرَ الحَدَائِقِ والنواويرِ البَلَدِيَةِ فقد جَمَعَ أَبُو الطيبِ
ذَاتَ كُلِّ جَمِيعٍ ههنا .

مُبْتَ قَرْسَانَا وَالْخَيْلُ حَتَّى
خَشِيتُ وَأَنْ كَرُمَنْ مِنْ الْحِرَانِ
وَأَنَا كَرِمْتُ لِأَنَّهَا عَرَبِيَّةٌ مِثْلَهُ ، وَكَعَرَبِيَّةٍ كَانَتْ غَرِيبَةً - نَسْتَحِلُّ الرَّمْزَ
وَالْكَنَايَةَ كَمَا قَدْ مَنَّا وَاضِحٌ *****

ثم اخذ جمالُ الشعب وقتته يغلبان عليه :
غَدَوْنَا تَكْفُضُ الْأَغْصَانُ فِيهِ
على أعرافها مثلُ الجبان

فِسرَتْ* وفد حَجَبْنِ الشَّمْسِ عني
 وجئْنِ من الضياء بما كفاني
 ونسِي الفتى العربي مفاوزَ بلادِ العرب وكلَّ قفرٍ :
 عني مراعِيه وزادِي رُبُوده
 وألقى الشَّرْقُ منها في ثيابي

دَنائِيرًا تَفِرُّ من البنان

ولا يَخْفَى أن الشاعر ههنا انسجم مع رشاقة حركة الغصون ولطفِ
 استدارة الشعاع ونَحَرَه على الثياب وهَوَّ الكريم وحصانه الكريم كلاهما
 سائرٌ ومنتش بهذه الكأس الدهاق من خسر الحياة :-

لها ثمرٌ تشير اليك منه بأشربةٍ وقفن بلا أواني
 هذا البيت كما ترى ذرُوة . من حيث اتصاله بسعني ما قبله اذ فيه قد
 اختفى شعور الغربة والبعد كل الاخفاء . وبلغ الافتتان أوجَه ومن
 حيث انه وصف حىً دقيقاً ، وليت شعري عن اندرو ما قيل حيث قال :-

The nectarine and the curious Peach
 Into my hands themselves do reach.

هن نظر في فوله the curious Peach الى قول
 شاعرنا :-

غريب الوجه واليد واللسان ؟

لها تَسَرُّ تشير اليك منه بأشربةٍ وقفن بلا اواني
 تأمل فوله :- وقفن بلا اواني لاريب نظر أبو الطيب إلى قول ابن
 الرومي في العنب « كأنه مخازن البلور » ولكن هذا تشبيه بارع ليس الا
 لا يذهلنا بالحيوية وصدق التجربة كما يذهلنا قول ابى الطيب •

وأمواء" تَصِلُ بها حصاهـا

صَـكِيلَ الحَنَى في أيدي الغواني

وهذا البيت فيه الرؤية وسماع الصوت مع استحسان جمالِ الحصى
عـيه رِقراق الماء وحكايةُ جميع ذلك صَوْتاً ومنظراً من طريق الجناس في
الصادات والتشبيه في قوله صليل الحَنَى في أيدي الغواني *

والمعنى قديم في نفس ابي الطيب بآية قوله :

نُـرِبْتُ على اسحسان ضوء جبينهـ

وروض نرى لساء فيه خـريـرا

وقوله :

بلاد" اذا زارَ الحسانَ بغيرها حصى تُـرِبُها ثَقَبَـنه لسخنق

ولكنه ههنا أحكسه وبلغ به غايةً الجودة * .

وقد اخفت الاندلسية مَرِقَتها مِنْه حيث قالت :

وَقَـانَا لَفَحَـةَ الرمضاء وادِـ

سقاها مُضَاعَفُ الغَيْثِ العسيم

نَزَلْنَا دَوْحَهُ فحَنّا عيننا

حُنُوَّ المرضعِ على الفَـطيم

وَأَسْتَقْنَا على ظمأٍ زُلالا

أَلَذَّ من المدامة للنَّـديم

يَرُوع حصاه حاليّة العَـذارى

فَتَلْمِسُ جانِبَ العِقْدِ النظيم

والايات في جملة ما متأثرة بايات الشعب . صِفة الظل
والخَفَضِ والنَّعْمَة ثم بَيَّت الحصى يَنْظُر مباشرةً اى بَيَّت ابي
الطيب ويخْفِي هذا النظر بهذه الصورة الْحَسَنَة من تَوَهَّم الحساء
آن عقدها انْقَصَم فتَمَسَّه وما هُوَ الا حصباء ذلك المكان

وهذا الذي أخفت به سرقها من بَيَّت مَعَانِي الشعب إنما اخذه من
بيت « تَذَكَّرت ما بين العذيب وبارق » وقد سبق لنا التنبيه على ذلك .

وايات الاندلسية - بعد جيدة في بابها ذات نَجْرِبَة مُسْتَقْدَة
تَحْمِل طابَع الأَنْدَلُس وما كَانَ عليه ظَرْفَاء أَهْلِهَا من حُبِّ الاستماع
بالنَّزْهَة في الأَوْدِيَة ... وفي شِعْر ابن زيدون شواهد حسنة مِمَّا
يُصَدِّق ذلك . وههنا يُنَبِّه الى أنها لا تَذَكَّرُ من الفاكهة سِيَّئًا . وأنما
تَذَكَّر الدَّوْح والظل . فهذا مع حلاوة الروح التي في هذه الايات، مما
يجعلنا نَقْطَع بأسفل تجربتها .

هذا ...

وبَيَّت :

صِيل الْحَيِّ في ايدى الغواني

كأنه انصراف عَسَا افْتَن به أبو الطيب من دُعَاء الشار والْأَنْسَرِبَة
الواقفات بلا اوان له .

وسَبَّح خياله مع هذه الانصراف الى ذكرى الشام .

ولو كانت دِمَشْق ثنى عِنَانِي

لَبِيقُ الثَّرَدِ صِينِي الْجَفَادِ

يَكُنْجُو جِي مَا رُفِعَتْ لَضَيْفٍ

بِهِ النيران نَدَى الدَّخَانِ

أي كريم عربي ... وفي هذا البيت روح تَرْتَم خفى بسعنى قوله من قبل :

ولكنّ الفتى العربىّ فيها غريبُ الوجه واليد واللسان
ثم انتبه مرة اخرى ، وهو بعُد منتبه لم ينقصم عن ذلك الى شعب
بوان :

يحل به على قلب شجاع ويُرْحَلُ منه قلب جبان

الضير في به « يعود على الشعب لان سياق الحديث عنه . يدُلك
على ذلك قوله « ولو كانت دمشق » أي لو كانت هذه الرياض غوطة دمشق
لكان وكان وفي لو ههنا معنى من معانى التسنى البعيد ... ليت ان
غوطة دمشق كانت هكذا أَمْنًا وَخَفَظًا وَإِذْنًا ما كُنْتُ اغادرها وأُظِرُّ
لأن اكون غريب الوجه واليد واللسان ودِمَشْقُ ههنا انما هي
رمز للشام كله . ولما كان فيه من عَهْدِ سيف الدولة وحلب والعراق
جميعا

ولكنّ هذه الرياضُ شعبُ بوان . وقد اقدمت عليه وأنا متهيّب
وهأنذا أعجَبُ به كلّ الاعجاب

وقد نعلم أن ابا الطيب في ظاهِر الامر أقبل على الشعب بقلب جبانٍ
ورحل عنه بقلبٍ شجاع ولكنّ تعبيره الذي ذَكَرَ أَصْدَق وقد نصّ
عليه نصّاً في ما بعد :

مَنَازِلُ لم يَزَلْ منها خيالٌ يُشَيِّعُنِي الى الثوبنذجان

أي منازل الشام والشعب جميعا ومثل هذا المزج عند ابي
الطيب كثير ، وشاهدُ الحال يدُلُّ على أنّه تذكّر مَنَازِلَ دمشق وهو

بأرض فارس . وسياق قوله يشعر بأنه يتحدث عن الشعب وجباله وبقاء ذلك في نفسه البقاء الطويل .

إذا غنى الحمامُ الورقُ فيها أجابته أغانيُّ القيان
ومن بالشَّعبِ أَحْوَجُ من حَمامٍ إذا غنى ونَاحَ إلى البيان
ولا أرى « من بالشعب » أراد به أبو الطيب أحداً غير نفسه وشأن ما بين قوله وهنا وقوله من قبل في البحيرة :

يشبُّها جَرِيئُها على بَلَدٍ تَشِينُه الأدياءُ والقُزَمُ
على أن ظاهر قوله يستفاد منه أنه غنى عَجْسةً من كانوا بالشَّعبِ
ورُوحُ الأَداءِ لا يَحْتَمِلُ هذا التَّأويلَ . وقوله :

وقد يتقاربُ الوصفانِ جِدًّا وموصوفاهما متباعدان
يُثْقَوِي ما نَذَّهَبَ إليه هنا ، إذ الحمام يُغَنِّي طرباً . وهو كذلك يصنع ، بهذا النشيد الفذَّ الخالد :

يَقُولُ بِشَعْبِ بَوَّانِ حِصَانِي أَعْنُ هذا يُسَارُ إلى الطُّعَانِ
أَبُوكُم آدَمُ سَنُ المعاصي وعلمكم مُفارقةَ الجَنَانِ
واذ حصان أبي الطيب فيه معنى الكناية عن نفسه فإنه لم يغادر الشعب إلا كارها كما ترى .

وأُنس أبي الطيب إلى حصانه ومودته له لا يخفى . وهذا الذي جعل ابن رشيق ينص على ما نص عليه حيث قال :-

وقد ذكر أبو الطيب الخَيْلَ في كثيرٍ من شعره وكان يُؤَثِّرُها على الإبل لما يَقُومُ في نفسه من التَّهْيِيبِ بِذِكْرِ الخيلِ وتَعاضِي الشَّجَاعَةِ فَقَالَ يَذْكُرُ قدومه إلى مِصرَ على خوفٍ من سيفِ الدولة :

وَيَوْمٍ كَلِيلِ الْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ
وَعَيْنِي إِلَى أَذْنَيَّ أَغْرَى كَأَنَّهُ
لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ فِي إِهَابِهِ
شَقَقْتُ بِهِ الظُّلُمَاءُ أَذْنَيَّ عِنَانِهِ
وَأَصْرَعَ أَيْ الْوَحْشِ قَفْقَيْتَهُ بِهِ
وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ
إِذَا لَمْ تَشَاهِدْ غَيْرَ حَسَنِ شَيَاتِهَا
أَرَاقِبُ فِيهِ الشَّمْسُ أَيَّانَ تَغْرُبُ
مِنَ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوَكَبٍ
تَجِبَى عَلَى صَدْرٍ رَحِيبٍ وَتَذْهَبُ
فِي طَغَى وَأُرْخِيهِ مَرَارًا فَيَلْعَبُ
وَأَنْزَلَ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ
وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنٍ مِنْ لَا يَجْرِبُ
وَأَعْضَائُهَا فَالْحَسَنُ عَنْكَ مَغِيبُ

واستشهاد ابن رشيق بهذه الايات جيد . لما فيها من صورة الوصف
مع صدق التجارب وقوة الروح المفصح بها . والبيتان الاولان شديدا حيوية
الانطباع والاخيران ذروة من حكمة القول وبيتا معاني الشعب :

يَقُولُ بِشَعْبِ بَوَانَ حِصَانِي اَعْنِ هَذَا يَسَارُ بِي الطَّعَانِ
أَبُوكُمْ آدَمُ سَنَ الْمَعَاصِي وَعَسْكُمْ مَفَارِقَةُ الْجَنَانِ

فيها معنى هذه الصداقة التي ذكرها ابو الطيب في البائية وفيها الحكمة
ذات العمق الفلسفي التي بحرها جعل يعرف ابو العلاء المعري من بعد .
وفيها بُعدُ الروح الفكيه الساخر الذي احسننا من انفاسه القويات في
الارجوزة .

ما أَجْدَرُ الْإِيَّامَ وَاللَّيَالِي

وقصيدة شعب بوان من فرائد الشعر - لا أحسب ذلك في شعر ابي
الطيب وحده ولا بالنسبة الى شعر العرب وحدهم

وفي القصيدة بُعدُ من مزايا الشاعر وإحسانه سوى وصف الطبيعة
ما لَا يَتَّسِعُ لَهُ نِطَاقُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ...

ويستوقفني بعد قوله :-

حَمَى أَطْرَافَ فَارَسِ شَمْرَى

يَحْضُرُ عَلَى التَّبَافِي بِالتَّفَانِي

بَضْرَبَ هَاجَ أَطْرَابِ الثَّمَايَا

سَوَى ضَرْبِ الْمُثَالِثِ وَالسَّانِي

فهذا كآتته فيه صدىً من اغاني شِعْبِ بَوَانِ حَسَائِثِهِ وَفِيَانِهِ وَتَسَاعِيرُهُ
الغريب :

كَأَنَّ دَمَ الْجَسَاجِمِ فِي الْعَنَاصِي كَسَا الْبُلْدَانَ رِيسَ الْحَيْقَطَانِ

مِسْكِينِ الْحَيْقَطَانِ لو كان أبو الطيب رآه في الشعب ما
كان خلط جماله بصُورَةِ الْجَسَاجِمِ وَالْعَنَاصِي وَالدَّمَاءِ .. ولقد يذكر خُطُّهُ
فُظَاعَةُ مَنْظَرِ الْقَتْلِ وَالدَّمَاءِ بِالرَّيْحَانِ وَالشَّقَائِقِ حَيْثُ قَالَ :-

وَلَا تَرِدُ الْغُدْرَانُ إِلَّا وَكَمَاؤُهَا مِنْ الدَّمِ كَالرَّيْحَانِ تَحْتِ الشَّقَائِقِ

وقريب منه قوله في « النارج والاعصان » .

وهنا رِيشُ الْحَيْقَطَانِ

هل كان أبو الطيب عَامِداً فِي جَمِيعِ هَذَا إِلَى مُعَارَضَةِ مَذَاهِبِ ضَعْفَاءِ
شُعْرَاءِ زَمَانِهِ مِنْ وَصْفِهِمُ النَّوَاوِيرَ الْبَلَدِيَّةَ عَلَى حَدِّ نَعْبِيرِ ابْنِ رَشِيقٍ وَمَا
بَسَجَرَاهَا مِنَ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانِ

.... الرَّاكِبُ الْخَيْلَ كَلَّثَهُ وَإِنْ كَانَ بِالنَّيْرَانِ غَيْرَ مُوسِمِ

أَمْ يَا هَلْ تَرَى عَطْفَ أَبُو الطَّيِّبِ عَلَى الْحَيْقَطَانِ - وَهُوَ طَائِرٌ مَسِيحٌ دَاجِنٌ
مِمَّا يَتَأَلَّفُهُ النَّاسُ وَيَذْبَحُونَهُ وَيَنْتَقُونَ رِيْشَهُ ذَا الْأَلْوَانِ الزَّاهِيَةِ كَمَا يَصْنَعُونَ
بَرِيشَ الدَّجَاجِ

يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يُسار الطعان
أبوكم آدم سَنَ المعاصي وعلسكم مفارقة الجنان
رحم الله أبا الطيب فقد كان مُبَدِّعا مبرزاً في جَمِيع ما راض عليه
بيانه من ضروب القول فأجاده وحسبنا بَعْدُ هذا القدر من
حديثه وحديث الطبيعة •

• والله الحمد اولا وأخيرا •

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما
كثيرا •

عبدالله الطيب،

١٩٧٧-٣-٢٤

* * *

تصميم الغلاف : بدروس بدروسيان
الخطوط : رضا الخطاط
التصميم الداخلي : عبدالحافظ جاسم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٩٣٩ لسنة ١٩٧٧

دار الحرية للطباعة - بغداد

١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

الجمهورية العراقية
وزارة الدفاع
بغداد
١٩٦٦

دار الحربية للطباعة

وزن دار الوطنية للنشر والتوزيع والإعلان

العدد ١٠٠ فلس

U

505

13.1

UT